١٠٥

المسرحية عند با مطرف

أ / نبيلة الشيخ

المسرحية عند بامطرف

أ. نبيلة الشيخ

أعطى محمد عبد القادر بامطرف نبذة موجزة عن التاريخ القديم لظهور المسرحية عند اليونان وحاول أن يبين مراد بعض الشعوب وفلسفتها في اختيار مواضيع المسرحية، ومن هؤلاء الإغريق " الذين هم أشهر الشعوب الذين اتصل المسرح بحياتها يفكرون في أمور استحوذت على حواسهم ومشاعرهم، وكذلك كان مسرح العصور المظلمة وعصر النهضة " [1] تلك الأمور هي الألم والشر والقضاء والقدر والدين .

تلك الأفكار كانت أيضًا تلاحق الهنود والصينيين " إلا إنهم وجدوا لأنفسهم مخارج من هذه المآزق الفكرية " بالتناسخ عند الهنود وظهور جماعتي كونفشيوس وتاو عند الصينيين وقد وضعت كل منهما تفسيرها الخاص لتلك الأفكار [2] . أما الروم فيقول بامطرف أنهم لم يأتوا " بشيء جديد سوى أنهم اقتبسوا وترجموا عن الإغريق " [3] . وبشكل عام حصر بامطرف أغراض المسرحية عند الإنسان قديمًا وحديثًا في عدد من النقاط تمثلت في الطقوس الدينية عند اليونان خصوصًا، أو الأمجاد والأزمات العسكرية والسياسية، أو إدانة الحروب، أو الشخصيات التاريخية الأسطورية، أو الهروب من مرارة الحياة وأحزانها، أو التعبير عن الذات، أو تطهير الروح عن طريق الشفقة والرهبة والخوف من المجهول أو مهاجمة المعتقدات والمفاهيم الخاطئة في المجتمع والسياسة [4] .

وأخيرًا يقرر بامطرف أن " النص المسرحي – سواء كان مكتوبًا أم مرتجلاً – يكون إما فكرة أو حلمًا أو تصورًا يريد الفنان أن يخرجه من صدره ليشاركه فيه أناس آخرون " [5]، وأنه " كلما نظر الإنسان من حوله في حياته في مكانه وفي أسرته وفي أصدقائه في أعدائه في معاناته المعيشية كلما * حاول بالمسرحية أن يجسد أفكاره " [6] .

---

[1] تطور النص المسرحي (ب) مخطوط لبامطرف1

[2] انظر: نفسه: 1- 2

[3] نفسه: 3

[4] انظر: نفسه: 2

[5] نفسه: 1

* كذا في المخطوط (ب) وهو خطأ لغوي شائع .

[6] نفسه: 2

وعدد بامطرف أنواع المسرحية فذكر منها أشكالاً كثيرة مبينًا كيفية أو فائدة ظهور بعض منها، وما هي أبرز المواضيع التي تتناولها تلك الأنواع، ومن ذلك التراجيديا أو المأساة التي يرى بامطرف أنها ناتجة عن اهتمام الإغريق بعنصر الشر ومحاولتهم تفسيره بشتى الوسائل [7]، ولعل بامطرف قصد بعنصر الشر أي الشر الذي يحصل بسبب القدر إذ كانت أولى الأعمال التراجيدية عند اليونان يقودها سلطان القدر ويظل الإنسان فيها ضحية القدر دائمًا [8]، ويدل على ذلك تمثيله لها بمسرحية (أوديب الملك) للمسرحي اليوناني سوفوكليس [9] .

والنوع الثاني هو الكوميديا وقد فرقها إلى عدة أصناف فهناك الكوميديا القديمة والحديثة والكوميديا المرتجلة كما فرق بين الملهاة والمهزلة والفاصل الهزلي. لكنه عمومًا قرر أن الكوميديا قد وجدت لمهاجمة الحماقات الاجتماعية والسياسية والاستعمار و " المقصود عمومًا بالكوميديا هو النقد الساخر أو المضحك " [10]، وقد مثل على كل صنف من هذا النوع بما اشتهر منه.

والنوع الآخر هو الأوبرا أو الأوبريت التي بين أن " ظهورها ناشئ صدفة أو عن خطأ في فهم طبيعة التمثيل اليوناني القديم فقد تصور بعض العلماء أن المأساة اليونانية (التراجيدي) كانت ترتل وتغنى كلها " [11]، وأرجع نمو هذا النوع وتطوره إلى قلة قيوده مقارنة بغيره من الأنواع الأخرى للمسرحية [12] .

ومن تلك الأنواع مسرح اللامعقول الذي اعتبره بامطرف شكلاً من أشكال الدراما الحديثة [13]، ورأى أنه لا جدوى من السخرية التي أظهرها ذلك النوع من المسرحيات من هواجس الإنسان في الطبيعة والحياة لأنها لم تغير من الحقيقة شيء [14]، لكنه قال أنه لاحظ من تفسير بعض أعلام مسرح اللامعقول لفكرتهم " أن هناك قصورًا بين العقل البشري والطموح البشري وأن العقل والطموح يتناقضان مع كون يكمن فيه العداء ويكمن فيه عدم المبالاة للبشر "

---

7 انظر: نفسه: 2
8 انظر: الأدب المقارن/ محمد غنيمي هلال، ط3- د . ت/161
9 انظر: تطور النص المسرحي (ب)2
10 نفسه (أ) 2
11 نفسه (أ) 3
12 انظر: نفسه
13 نفسه (أ) 8
14 نفسه (أ) 5

[15] . وقد رأيناه من قبل قد حذر من هذا المذهب ثم رجع عن ذلك ودعا إلى إدراج بعض التراث القصصي للصوفية ضمن مسرح اللامعقول عن غير سخرية أو تهكم كما يقول .

أما حول كتابة المسرحية وتكوينها وعناصرها الفنية فإن بامطرف يرى " أن كتابة المسرحيات من أسهل الأمور " [16] .

واستثنى من هذا الحكم مسرح الطفل فرأى أن الكتابة له " عمل تخصصي وصعب جدًا لا يبرع فيه إلا أفراد قليلون " [17] .

وقد خصّ بامطرف عنصرًا واحدًا بحديثه من عناصر المسرحية وهو عنصر الصراع حيث قرر أن " الصراع عنصر جوهري في الدراما " [18]، وأنه " عنصر قوي وفعّال في تركيب كل الحبكات المسرحية الدرامية " [19]، ورأى أن الصراع سواء أكان " في الكوميديا أو التراجيديا أو الميلودراما أو الملهاة أو المسرح الشعبي أو غير ذلك من الأشكال المسرحية فإنه يتخذ ثلاثة مقاصد أو ينبغي أن يتخذ ثلاثة مقاصد هي الترفيه بغرض التوعية والتوعية بغرض إثارة الاهتمام وإثارة الاهتمام بغرض العمل البنّاء المفيد في إعادة صيانة المجتمع " [20] . ونجده هنا قد أعطى بعدًا أخلاقيًا فلسفيًا لذلك العنصر، لكنه صرح قائلاً " إن النص المسرحي ليس نشرة إعلامية ولا تعميمًا تنظيميًا أو حزبيًا ولا تقريرًا سياسيًا ولكنه رأي أو حلم أو تصور للكاتب المسرحي " [21]، " لكن كاتب المسرحية بدل أن يفلسف الأمر ... يلف ويدور مظهرًا قدرته على التشويق والصعود إلى الذروة ثم الحل، والمشاهدون مأخوذون بالمسرحية وباقتدار الممثلين وبعبقرية المخرج " [22] .

وأشار إلى تكوين المسرحية من الوحدات الثلاث أو الأربع وقال إن " المقصود بالوحدات الثلاث هو الإلقاء عن طريق المؤلف أو بالاشتراك بين المؤلف والممثل أو عن طريق

---

15 نفسه (أ) 8
16 تطور النص المسرحي (أ)، مخطوط لبامطرف6
17 لقاء مع بامطرف، أجراه محفوظ سالم ناصر، الشرارة، العدد: 453، 1985/1/12م/12
18 تطور النص المسرحي (ب)
19 نفسه (أ) 9
20 نفسه
21 نفسه (ب) 4
22 نفسه (أ) 6

الممثل سواء بالنطق أو بالصمت ونعني به البانتومايم " [23]، والبانتومايم هذا هو (التمثيل الصامت)، أما الوحدة الرابعة فقصد بها " اشتراك المشاهدين في التمسرح وهي طريقة برخيت " [24]، وهذا ما يطلق عليه المسرحيون بهدم " الجدار الرابع حيث يعتد برخيت بأن الجمهور يجب أن يشترك في المسرحية مع الممثلين، وطريقته إلى ذلك أن يجعل الحدث العادي غريبًا في نظر المشاهد بحيث يندمج فيه بفكرة أكثر من شعوره ومن ثم يحمله ذلك التفكير على إرادة تغييره " [25].

ويرى بامطرف أن المسرحية جنس يجمع بين الأدبية والفنية " فالنص المسرحي أدب لأنه يتعامل بالكلمة، ولكن تكامله الفني لا يتأتى إلا بالتمثيل ولوازمه الأخرى وهنا يعد أدبًا فنيًا " [26]، ومن هنا يتحدث بامطرف عن علاقة المسرحية بالمسرح فيقول إن الكاتب المسرحي لا يعد عمله الفني تامًا حتى تؤديه مجموعة واسعة من الفنانين أمام جمهور قد اجتمع خصيصًا لذلك و" نحن عندما نذكر كلمة مسرحية تؤدى بالضرورة معنى جماعيًا يتخيله المرء مكونًا من كاتب وممثل ومخرج ومصمم ديكور وأزياء ومهندس صوت وإضاءة إلى آخر القائمة الطويلة " [27]، وعلى هذا الأساس يرى بامطرف أن " الحكم على النص المسرحي من خلال القراءة وحدها لا يساعد على إعطاء حكم شمولي ومنصف " [28]، ويرى أن من يكتفي بقراءة النصوص المسرحية يكون تأثره ناقصًا، لأن " العمل المسرحي أساسه النص والممثل معًا وذلك أن الممثل يجسد النص بالحركة والانفعال والكلمة ليضفي عليه قيمته المسرحية المتكاملة " [29]، ويستثني من هذا الحكم المسرحية التي " أعدت خصيصًا للقراءة لا للتمثيل على المسرح " [30].

وقد تعرض بامطرف بالتعليق والنقد الموجز لبعض المسرحيات القديمة والحديثة منها المسرحية المعروفة (أوديب ملكًا) و(الكوميديا الإلهية) . فعن المسرحية الأولى رأى أن جوهرها هو " أن الفرد ذا الثقة المفرطة في نفسه لا يكون شيئًا بمفرده مهما أوتي من حماس

---

23 نفسه (أ) 8
24 نفسه
25 النقد الأدبي الحديث 648
26 تطور النص المسرحي (أ) 8
27 نفسه (ب) 1
28 نفسه (أ) 8
29 نفسه
30 نفسه (ب) 1

وقوة " [31]، وأنها تمثل " موعظة عظيمة لكل شخص يشعر أنه قادر على الاكتفاء بذاته، وتنطبق هذه المسرحية على الأفراد والجماعات والدول " [32]، وأيد قول القائل أن المسرحية ما زالت ذات دلالة وعظة حتى لأمريكا في القرن العشرين [33] .

أما الكوميديا الإلهية فقد عدها بامطرف عملاً " يمثل خلاصة الفكر في العصور الوسطى وصور فيها مخاوف عقاب الآخرة تصويرًا مهولاً ينم عن مقدرة عظيمة في الخيال " [34]، ورأى أن مؤلفها الإيطالي دانتي " قد بناها على رسالة الغفران لأبي العلاء المعري إلا أن أبا العلاء كان يسخر من يوم القيامة " [35] .

ومن أعلام المسرحيين الذين تعرض بامطرف للكلام حولهم شكسبير وبرنارد شو وبريخت أما شكسبير فقد أفاض وأطال في الحديث عنه لهذا أفردته لنفسه في البحث التالي وأما برناردشو الإيرلندي فقد ذكر بامطرف أنه من قراءاته لأعماله تيقن أنه كان يناصر الآراء الشيوعية بقوة أعظم من قوة أكبر الأيديولوجيين الشيوعيين [36]، ورأى أن برناردشو مع بريخت الألماني " كانا يريان أن جانبًا كبيرًا وأساسيًا من المشكلات التي تجابه البشر في حياتهم يكمن حله في الشيوعية " [37]، وهو يعدهما مع شخصيتين أخريين هما إبسن السويدي وتشيخوف الروسي أولى الشخصيات وأعظمها في الدراما الحديثة [38]، ويرى بامطرف في أعمال هؤلاء الكتاب الأربعة " المخرج الواضح من التهويم الرومانسي ومن الإغراق في تفسير البشر ومحيطهم ومشاعرهم نحو المظاهر الطبيعية " [39] . لكنه كان يرى أن برناردشو وبريخت ذوي ميول شيوعية، وأن بريخت قد أظهر هذا الميول في مسرحه الملحمي وفسره بأنه الخاص لسير الأبطال [40]، وهو خطأ لأن هذا المسرح الذي ابتكره بريخت لا يمت بصلة للملحمة في مفهومها القديم [41] . وإنما هو قائم على بناء المسرحية على عدد كبير جدًا من المشاهد

---

31 نفسه (أ) 1
32 نفسه
33 نفسه
34 نفسه (أ) 3
35 نفسه
36 نفسه 8
37 نفسه 7
38 نفسه
39 نفسه
40 نفسه
41 انظر: النقد الأدبي الحديث 593

القصيرة الملتصقة بعضها ببعض في خط أفقي تصبح المسرحية معه كأنها سلسلة من الشظايا أو الشذرات وذلك لتخدم أغراضًا نفسية [42] .

هذا عن أعلام المسرحيين الأجانب، أما بالنسبة لأعلام المسرحيين العرب فقد خص بامطرف الكاتب على أحمد باكثير بالنقد والذكر، لكن بشكل عابر وموجز نسجله هنا، فبامطرف يعد باكثير في طليعة المؤلفين المسرحيين العرب ويقول : " كان علي باكثير أحد أعمدة المسرح العربي في مصر، ومن أكثر المساهمين في إعلاء صرح الحياة الفكرية في العالم العربي في عصره، وكان من الذين أوقفوا طاقاتهم لخدمة القضايا الهامة في المجتمع العربي والإسلامي " [43]، كما وصفه بالأديب والشاعر [44]، وبأنه استطاع بمقدرته الفنية أن يحتل مكانًا مرموقًا في عالم الأدب العربي [45] .

وأبدى بامطرف إعجابه بمسرحياته ورواياته خاصة مسرحية (مسمار جحا) حيث رأى " أن ذلك الاصطلاح العامي بقصته الفلكلورية البسيطة صادف المفكر الذي اتخذه منطلقًا إلى عمل فني رائع " [46]، فصنع منه باكثير " قصة ساهم بها مساهمة فعالة في محاربة الاحتلال البريطاني لمصر في الأربعينات " [47] .

ويرى بامطرف من متابعته لإنتاج باكثير أنه في إدارة الحوار بين شخصياته " يأتي في المرتبة الثانية بعد الأستاذ توفيق الحكيم " [48] .

إن بامطرف نفسه قد مارس كتابة المسرحية وكتب العديد منها، وهي : (زهرة مزقتها العواصف) و(الميكروفون) و(الشيخ الكبير) و(الأمواج وصخور الشاطئ) و(حرب الأرادي) و(سور الشحر) و(شرف العائلة) و(ليل بلا غد) * و(الأحلام) و(المتسول

---

[42] انظر: المسرح في مفترق الطرق/ جون جانستر، ترجمة: سامي دريني خشبة، مراجعة: رشاد رشدي، دار الجيل للطباعة- الفجالة، 1967م/487- 490

[43] الجامع، محمد عبد القادر بامطرف، دار الهمداني- عدن، ط2- 3،63/1984

[44] نفسه

[45] انظر 14أكتوبر ع2،1110

[46] قصة القصة 15

[47] نفسه

[48] 14أكتوبر ع2،1110

* كتبها في 1978/6/2، وقد منعت من العرض لأسباب سياسية . انظر ليل بلا غد .. متى ترى النور، عزيز الثعالبي، المسيلة ع751، 2012/7/4، 12، أما شرف العائلة فكتبت سنة 1977

الطروب) و(نزهة العيد) و(هدية العيد) [49] .

والمسرحية الأخيرة هي مسرحية للأطفال " وكأنه أراد أن يقول اكتبوا للطفل أو هكذا تكون الكتابة للطفل " كما يقول الناقد عمر محفوظ باني [50]، أما بامطرف فيقول معلقًا على مسرحيته هذه إنها " مسرحية توجيهية لما ينبغي أن يكون عليه الأطفال خلال النزهات من سلوك نحو أنفسهم ونحو الممتلكات العامة " [51] . أما مسرحية (الأحلام) فقد كتبها بامطرف شعرية بالشعر الشعبي ووصفها هو بأنها " رواية فلسفية " [52]، والمسرحية الأولى وهي (زهرة مزقتها العواصف) كتبها بلغة فصحى مبسطة لكنه بدأها بأغنية باللهجة العامية رددها بعض شخصيات المسرحية، وذكر بامطرف أنه كتب مسرحيته (المتسول الطروب) التي وصفها بالاجتماعية باللغة الفصحى [53] لكني لم أعثر عليها، أما سائر مسرحياته فقد كتبها باللغة العامية عرفت ذلك إما برؤيتي لها، أو بشهادة بعض من اطلعوا عليها، وقد وجدت لبامطرف محاولة لكتابة مسرحية تاريخية باللغة الفصحى وهي مخطوطة، ولكنه لم يكمل منها سوى منظر واحد ثم أعرض عن إتمامها وأكملها سردًا وتدور أحداثها في مدينة الشحر في عهد الملكة سمعون .

وإذا كان بامطرف يرى أن كتابة المسرحية من أسهل الأمور فقد أجمع جميع من قابلته ممن أخرجوا بعض مسرحياته على ضعفه في هذا الفن، وقد أخذوا على بامطرف في مسرحياته طول القطع الحوارية بين الشخصيات مع قلة حركة الممثلين، وكثيرًا ما تتحول لغة المسرحية إلى لغة خطابية وعظية مثقلة بالمصطلحات والشعارات الصارخة .

---

[49] أشارت إلى المسرحية الأخيرة بعض المراجع بوصفها قصة قصيرة، والصحيح أنها مسرحية ذات فصل واحد .
[50] بامطرف الغائب الحاضر 19
[51] الشرارة. 12/548- 1987/8/12م، أجرى اللقاء: محفوظ سالم ناصر
[52] نفسه: 5/176
[53] نفسه

١٠٦

ريادة با مطرف في دراسة

تراث حضرموت الملاحي البحري

أ / محمد علوي با هارون

ريادة بامطرف في دراسة تراث حضرموت الملاحي البحري

إعداد

محمد علوي عبدالرحمن باهارون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

تحظى حضرموت بتراث اجتماعي ملاحي وشعبي عريق تناقله الأحفاد عن الأجداد عبر التلقي الشفهي يتحدثون عنه وينثرونه على مسامعهم بفخر واعتزاز كلما جد الحديث عن ماضيهم الحافل بالأمجاد والبطولات إلى أن وصل إلينا مفرقا في صدور أولئك الأحفاد فمادون منه بقي وما لم يدون اندثر بموت أصحابه وكم فات ما فات من تراثنا لأنه لم تدونه الأقلام.

ويعتبر الأستاذ المرحوم محمد بن عبدالقادر بن عمر بامطرف (1915- 1988م) السياسي والصحافي والأديب والمؤرخالحضرمي الغني عن التعريف، من الأفراد القلائل الذين كرسوا اهتمامهم بذلك التراث الحضاري العريق مفتشا عنه في بطون الوثائق والمخطوطات ومتلقيا عن الشيوخ الحافظين له سواء كان تاريخيا أوشعبيا أوشعريا أوبحريا، وقد قام بإبراز هفي العديد من الدراسات القيمة والمؤتمرات العلمية ومنها المؤتمر الأول للأدب والتراث الشعبي الذي انعقد في محافظة شبوة عام 1974م، ويعد كتابه (معجم الأمثال والاصطلاحات العامية المتداولة في حضرموت) إضافة فريدة في خدمة تراث حضرموت الشعبي، وكذلك موسوعته الأدبية(الشعر الشعبيالحضرمي فن وصناعة) المكونة من خمسة أجزاء.

وكان رحمه الله كما حدثنا عنه تلاميذه – ومنهم أستاذنا الملاحي رحمه اللهبأنه موسوعة علمية ناطقة حافلة بالمعارف ومكتظة بالمعلومات التاريخية والأدبية والسياسية والدينية وغيرها، إذا تحدث في موضوع يخال لك بأنه من صميم تخصصه، ومن عجيب الصدف وأنا أقلب بعض مؤلفاته القيمة لكتابة هذه الورقة البحثية وقفت على أبيات كنت قد كتبتها في مؤخرة كتابه لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى قلت فيها:

نـزَّه بطرفـك فـي أبحـاث بـامطرف ... تجـده مـن كـل بسـتانٍ لنـا يقطـف
مـــؤرخ وأديـــب كـــان ديدنـــه ... بحـث العلـوم وفـي تـدوينها يشـغف
بـل كـان موسـوعةً علميـةً وبهـا ... تجـد فوائـدْ لقرائـه بهـا يتحـف

ولعل دوره في دراسة التراث الملاحي البحري لحضرموت يعد دورا رائدا لم ينافسه عليه أحد فهو أول باحث حضرمي يهتم بذلك الموروث العظيم من مرشدات بحرية شعرية ونثرية وعادات وتقاليد البحارة، وفتح

الباب على مصراعيه أمام الباحثين الحضارمة المعاصرين وشجعهم على دراسة ذلك الموروث، وكذلك الباحثين الغربيين الأكاديميين الذين أثارتهم دراسات بامطرف الملاحية فاتجهوا إلى حضرموت باحثين ومنقبين عن ذلك التراث المجيد الذي بدأ كثير من أبناء حضرموت يتناسونه بانقراض عصر الملاحة البحرية على متن السفن الشراعية الخشبية التي اشتهرت بها حضرموت منذ عصور قديمة إلى ما قبل الإسلام حتى وصف أبناؤها بأنهم سادة البحار الشرقية والمحيط الهندي ووصفت بعض موانئها (الحامي) بعرين أسود البحر، ونازعهم على تلك السيادة البرتغاليين في القرن العاشر الهجريوالهولنديين في القرن الحادي عشر والأوربيين في القرن الثالث عشر كما هو معروف في كتب التاريخ، وتوسع في الحديث عنه الأستاذ بامطرف نفسه في كتابه القيم (الشهداء السبعة) ضد الغزو البرتغالي على ميناء الشحر خصوصا وحضرموت على وجه العموم عام 929هـ الموافق 1522م.

ونظرا لسعة إطلاع الأستاذ بامطرف وإتقانه للغة الانجليزية كتابةً وتحدثاً، ساعدته فيالإطلاع على العديد من الدراسات والأبحاث العلمية والأدبية العربية والانجليزية وخصوصا تلك الكتب التي تحدثت عن الملاحة في المحيط الهندي ودور الحضارمة فيها إلا أنها جاءت ناقصة أحيانا ومشوهة في بعض الأحيان كما يحدثنا عنها بقوله: من المسلم به أن الملاحة البحرية لجنوب بلاد العرب والخليج العربي والمناطق الأخرى المجاورة كانت موضع اهتمام الباحثين منذ زمن بعيد. وبما أن معظم أولئك الباحثين كانوا أجانب بالنسبة إلى الجنوب اليمني فان جانبا من بحوثهم، رغم حرصهم على الدقة، أتى وقد اعتوره التشويه في المسميات والدلالة حتى ليظن المطلع على كتبهم أنهم لفرط نهمهم للتدوين، يدونون كل ما صل إلى أيديهم دون تمحيص . ومن تلك الأبحاث الجليلة التي اطلعنا عليها ما يلي:

1. بحث عن المستعمرات البريطانية بعدن ألفه ف.ن هنتر عام 1877م، أورد فيه بيانا بالسفن الشراعية التي كانت تتردد على عدن وذكر شيئا عن أشكالها وعن الجهات التي تصنع فيها.
2. كتاب الملاحة الهندية، ألفه د.موكرجي عام 1912م ، ذكر فيه المصطلحات الملاحية المتداولة في المحيط الهندي ومنه نعلم مصادر بعض الكلمات التي نستعملها نحن الحضارم في تسمية أجزاء وآلات وحركات سفننا.
3. كتاب أسماء ما في السفينة الشراعية ألفه جاسم الدجيلي العراقي عام 1913م.
4. كتاب الأيام الأخيرة للدقل والشراع، ألفه ألان مور عام 1925م، وهو كتاب نعتبره إشراقا داخليا اجتاز به المؤلف حجب الغيب لما سوف تؤول إليه حال السفينة الشراعية أمام السفينة البخارية ، وذكر فيه بعض أسماء السفن وأوصاف جانب من آلاتها.
5. كتاب أصول الكلمات الشرقية المستعملة في اللغة السواحلية، ألفه كُرُوْم عام 1940م، ونفهم من هذا الكتاب أنأهالي شرق إفريقيا اقتبسوا عن الملاحين الحضارم كل مصطلحات صناعتهم الملاحية البحرية.
6. السفن العربية في مشرق البلاد العربية، ألّفه باون، وأورد فيه أسماء بعض أنواع السفن الشراعة، وقد جاءت بعض مسمياته مشوهة لأسماء بعض أنواع سفن معروفة في الخليج العربي والساحل الحضرمي.

7. المنظومة البحرية في وصف أجزاء وآلات السفينة الشراعية للملاح علي بن أبي بكر بامعيبد، وضعها عام 1958م.
8. منظومة الملاح العماني مسلّم بن راشد الصوري عن معالم شواطئ البحر الأحمر والبحر العربي ألفها عام 1853م بعد عودته من الأراضي المقدسة وأداء فريضة الحج في رحلته البحرية من جدة إلى صور بسلطنة عمان.[1]

هكذا اكتسب الأستاذ بامطرف في مجال الملاحة البحرية خبرة تفوق خبرة العديد من الملاحين في كثير من الأحيان، بالإضافة إلى إطلاعه على مؤلفات الحكم سليمان بن أحمد المهري في مكتبة السوربون بباريس، وهو من أبناء الشحر وصاحب المؤلفات العديدة في الملاحة البحرية ومؤلفاته مشهورة وقد عاش في القرنين التاسع والعاشر الهجريين وكان معاصرا للملاح العماني الشهير احمد بن ماجد،[2]وغيرها من المنظومات والمرشدات البحرية الحضرمية التي كانت تزخر بها خزائن ربابنة حضرموت.

بامطرف ورحلته البحثية إلى ميناء الحامي:

إن أول اتجاه للأستاذ بامطرف في البحث عن تراث حضرموت الملاحي البحري هو إلى ميناء الحامي الواقع شرقي ميناء الشحر التاريخي، ذلك الميناء الذي قال عنه بأنه الرافد الأساسي لميناء الشحر بالبحارة المغامرين والربابنة الأكفاء، وقد أفاض في الحديث عنه في العديد من دراساته القيمة ومنها قوله في الشهداء السبعة: "لقد عاش في الحامي خيرة الملاحين البحريين اليمنيين الذين كانوا عماد الملاحة البحرية الجنوبية عبر التاريخ، واحتفظت الحامي دون بقية الموانئ اليمنية الجنوبية بمزية إنجاب مشاهير الملاحين البحريين، وقد لعب أهل الحامي دوراً رائعاً في ملاحة اليمن الجنوبية منذ فجر التاريخ وكانوا يجوبون البحار بسفنهم الشراعية من خليج البنغال إلى خليج السويس ومن مشارف ناتال بجنوب إفريقيا إلى ميناء البصرة وبذلك أبقوا الخط الملاحي الشهير المعروف بخط مسقط ـ الشحر ـ المخا مفتوحاً للتجارة بين جنوب بلاد العرب والعالم الخارجي".[3]

والسبب الرئيسي الذي حث الأستاذ بامطرف على القيام بتلك الجولات البحثية المتكررة إلى ميناء الحامي هي تلك الرحلة التي أبحر بها من ميناء المكلا إلى ميناء عدن عام 1942م في بعض مهامه السياسية حيث يعمل حينذاك موظفا في إدارة الاستشارة البريطانية ويرافق البعثات الطبية مترجما إلى جزيرة سقطرى وغيرها،وقد أقلته سفينة شراعية كان ربانها النوخذة شيخ بن محمد باعباد (ت 1979م) كما يحدثنا عنها بالقول: "في شهر ديسمبر سنة 1942م سافرت من المكلا إلى عدن على سفينة شراعية ربانها الملاح شيخ بن محمد باعباد (من أبناء الحامي) وفي صباح أحد الأيام كانت سفينتنا على مقربة من قرية شقرة وكنا نشاهد جبل الفضلي ممتداً في مؤخرة السفينة، ثم شاهدت الملاح باعباد يتبادل الرأي مع صرنج (نائب الناخوذة) السفينة وبعد ذلك ألقى تعليمات لم أفهم معناها إلى السكوني ثم وضع يده على كتف الصرنج وقال بصوت مسموع:

والعقرب الآن مجراك منها لسيلان

تشوف شمسان بندر عدن سلطنيه

فسألته عن هذه الرموز المنظومة وعن الناظم، فشرحها لي وحدثني عن الملاح باطايع ولم أكن قد سمعت به من قبل، ومنذ ذلك اليوم أصبح الملاح باطايع موضع اهتمامي".[4]

جزى الله الصدف خير الجزاء فلوم لم يسافر الباحث بامطرف مع الربان باعباد في تلك الرحلة لما كنا عرفنا شيئا عن الملاح باطايع وبقية الملاحين الحضارمة الذي قام بدراسة حياتهم بعد ذلك، سوى تلك المقاطع الشعرية المبتورة التي تردد على السن بعض كبار السن من ابناء الحامي وغيرهم من البحارة الحضارمة وينسبونها إلى النوخذة باطايع فمن هو ياترى باطايع المذكور؟وفي أي عام ولدومات؟وأين تعلم وكيف عاش؟ وما هي مؤلفاته وآثاره العلمية؟، كل تلك الأسئلة سنقف حائرينعندها.

بعد عودة الأستاذ بامطرف من مهمته تلك إلى المكلا اتصل بزميله في العمل الحكومي في السلطنة القعيطية المرحوم الشيخ بدر بن أحمد الكسادي وأخبره بما جرى له وسمعه من النوخذة باعباد أثناء سفرهم إلى عدن فزاد من حفيظته ورغبه في دراسة تلك المنظومة التي وصف فيها الطريق البحري من مسقط إلى المخا وأخبره أن له منظومة أخرى في وصف الطرق من سيحوت إلى جزيرة زنجبار، وقد جهز له الرحلة إلى ميناء الحامي حيث نزل ضيفا في بيته والتقى بربابنتها المتقاعدين وفي مقدمتهم الربان المعلم محمد بن عبدالله باعباد (ت1981م) والربان عمر بن حسين عيديد (ت1970م) والربان عمر عبدالله الكسادي (ت1991م) والربان سالم بن سالمين كعيتي بالإضافة إلى الربان شيخ باعباد الذي التقى به في السفينة والذي كان سببا في زيارته تلك.

وقد قام الأستاذ بامطرف بإلقاء العديد من الأسئلة عليهم وهم يجيبونه وقد دون تلك اللقاءات البحثية في مذكراته اليومية، كما اطلع على مدوناتهم البحرية والشخصية وسجل عنهم منظومتي الملاح سعيد بن سالم باطايع الأولى والثانية وقام بمقارنة النصوص ومناقشتها مع أولئك الربابنة وشرحوا له مضامينها واستخرج منها نصا موحدا متفق عليه بين روايات أولئك الملاحين كما يحدثنا عن ذلك بقوله:

"وفي عام 1965م ألح علي صديق عزيز [بدر الكسادي] أن أعد دراسة عن الملاح باطايعومنظومتيهالملاحيتين،غير أن أعمالاً تاريخية أخرى حالت دون تحقيق مطلبه وفوق ذلك فإنني لم أكن في ذلك الحين قد أكملت البحث عن متن المنظومتين ومضاهات نصوصها بالروايات المختلفة التي كانتا ترويان بها للخروج من كل ذلك بنص موحد للمنظومتين متفق عليه بين الملاحين اليمنيين المعاصرين الثقات.وبمساعدة عدد من ملاحي قرية الحاميتمكنت من جمع نصوص المنظومتين وشرحهما في هذه الدراسة التي أسميتها، بناء على اقتراح أحد شيوخ الملاحة البحرية في الحامي، (الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع)".[5]وقد قام بشرح تلك المنظومتين ومقاطيعها الرباعية في تلك الدراسة القيمة التي اقترح عليه كما يبدو الربان محمد بن عبدالله باعباد على تسميتها بالرفيق النافع ويقول عنها أنها تسمية موفقة لسببين أولا: أنها تسمية أتت ملخصة لمحتويات الكتاب ودالة عليها، وثانياً: لأن أريج الماضي العطر ينعكس في الأسلوب القديم لهذه التسمية المسجوعة المحببة إلى أنفس الكثيرين.

ويعترف بالفضل لأهله في تلك الدراسة بالقول: إن الفضل كل الفضل يعود لتعاون أبناء الحامي معي لدى إعدادي هذه الدراسة عن جانب مغمور من تراثنا اليمني الذي نعتز به ، وكان قد ظل أكثر من قرن ونصف

القرن حبيساً في الصدور يتناقله الخلفعن السلف بالتلقي الشفهي العابر وليس عن طريق التدوين الثابت. ومن قبيل الاعتراف بالفضل لذويه وهم في هذه الحالة أهالي قرية الحامي قاطبة، ألفت قبل هذه الدراسة رسالة أسميتها (شخصيات لاتنسى)تعرضت فيها بشيء من التوسع لحياة الملاح باطايع وأوردت فيها تراجم لثلاثة ملاحين من أبناء الحامي، كانت لهم شهرة واسعة في الملاحة في جنوبنا اليمني وهم الملاح عوض بن أحمد بن عروة (1262-1333هـ) والملاح محمد عوض عيديد(1282-1358هـ) والملاح عمر باصالح (1280-1361هـ) ، وكان قد تدرب على أيديهم في فنون الملاحة البحرية العشرات من ربابنة الديس والحامي والشحر والمكلا منهم على سبيل المثال الملاح المعاصر محمد بن عبدالله باعباد (85عاماً) وهو من أبناء الحامي. (6)

ولعل من أبرز الملاحين الحضارمة الذين تلقوا تدريبهم العملي والنظري على يد ربابنة الحاميعبود محمد باخبازي وسعيد عمر حوري وعبدالرحيم عمر حوري من أبناء الديس، وعبدالله محمد مدي ومحسن عبدالحبيب بوبك من أبناء الشحر وغيرهم. (7)

وتعتبر دراسة الأستاذ بامطرف (شخصيات لاتنسى) من الدراسات العلمية الرائدة في خدمة تراث حضرموت فقد اشتملت على دراسة الحياة الاجتماعية العلمية والعملية لجماعة من الربابنة والنواخيذ الحضارمة في موانئ الشحر والمكلا والحامي، وهي اليوم في حكم المفقود حيث أخذت من مكتبتهفي أيام الحكم الشمولي مع مجموعة من مؤلفاته ومخطوطاته في خطة مدبرة للقضاء على تراث حضرموت ولكن ويمكرون ويمكر الله، وقد نقل عنها المرحوم بدر الكسادي في كتابه الأبطال وقال عنها: ومنها كتابه شخصيات لا تنسى تناول فيه عددا من قباطنة الحامي الذين لهم شهرة في فنون الملاحة البحرية، وأعطاهم ما يستحقونه من ثناء وتقدير لخبراتهم البحرية في فنون الملاحة، وتعد كتابات الأستاذ بامطرف وثائق لها أهميتها التاريخية ولنا أن نفخر بها وبدلالاتها الواضحة ... (8)

محتويات الرفيق النافع:

يحتوي كتاب الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع،على إهداء ومقدمة والإرشادات الملاحية من سيحوت إلى جزيرة زنجبار، والإرشادات الملاحية من مسقط إلى بندر المخاء وخاتمة ويشتمل على رسم للبوصلة وخرائط توضع الرحلات البحرية واتجاه هبوب الرياح وبعض أجزاء السفينة.

وقد جعل الإهداء إلى قرية الحامي وأهلها. أما المقدمة فقد أفاد فيها وأجاد متحدثا عن البوصلة البحرية ومن أول من اكتشفها واستهلها بقوله: اختلف المؤرخون حول من كان أول من اخترع البوصلة التي تسير على هديها السفن في البحر ومن بين المجادلات التاريخية المطولة في هذا الموضوع، برزت أسماء ثلاث أمم ينسب إلى كل منها اختراع البوصلة .. وتلك الأمم الثلاث هي الصينيون والعرب واليونان.

وتحدث عن تلك المجادلات وخرج منها بنتيجة وهي قوله: وليس من السهل الإدعاء بأن أمة من الأمم كانت الأولى في استعمال البوصلة ، أو القول أن البوصلة استعملت صدفة في أكثر من تاريخ واحد دون أن يسند هذا الإدعاء دليل .

ثم تحدث عن معرفة العرب الفلكية والاستهداء بالنجوم في الصحراء ثم في البحر قبل اختراع البوصلة وتوصل انه يصح الاستدلال بأن الملاحين البحريين العرب، وخاصة في جنوب وشرق الجزيرة العربية قد تبادلوا علم البوصلة البحرية مع الفرس والهنود .. ولا يعزب عن البال أن كثيرا من الأسماء والاصطلاحات المستعملة عند الملاحين العرب والهنود والفرس ذات اشتقاق عربي أو هندي أو فارسي أو يوناني.

وتحدث فيها عن عرب جنوب الجزيرة العربية ودورهم في تطوير البوصلة وجعلوها مائة وثمانية وعشرين اتجاها بدلا من الاتجاهات الثلاثمائة والستين المعروفة قديما بالدرجات عند بطليموس والتي عمل ويعمل بها الملاحون الغربيون .وهذه الاتجاهات على النحو التالي :

62 اتجاها في شرق الديرة وأسموها مطالع.

62 اتجاها في غرب الديرة وأسموها مغايب.

4 اتجاهات تمثل الشمال والجنوب والشرق والغرب وأسموها أصولا ومفردها أصل.

وعلى هذا الأساس وضعوا للمطلع (الشرق) 15 نجما هي ، حسب وضعها في الديرة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي ، الفرقد والنعش والناقة والعيوق والواقع والسماك والثريا والمطلع (أي اتجاه الشرق الأصل) والجوزاء والتير والإكليل والعقرب والحمارين وسهيل والسندبار.

وفي المغيب (الغرب) وضعوا نفس هذه النجوم وبينها وضعوا طبعا نجم المغيب (أي اتجاه الغرب الأصل) بعد أن حذفوا نجم المطلع.

فأصبح عدد النجوم ثلاثين نجما وأضافوا نجمين هما نجم الجاه (الشمال الأصل) ونجم القطب (الجنوب الأصل) وبهذا أصبح عدد النجوم جميعها التي تتكون منها الديرة اثنين وثلاثين نجما أو بمعنى آخر 32 اتجاها.ثم جعلوا المسافة بين كل نجم والآخر خنا فأصبح لهم في الديرة 32 خنا ، وقسموا كل خن من هذه الخنون الاثنين والثلاثين إلى ثلاثة أقسام (أي ربع خن ونصف خن وثلاثة أرباع الخن) فأصبح عدد الاتجاهات في جميع الخنون ستة وتسعين اتجاها.فإذا أضفنا اتجاهات الخنون الستة والتسعين إلى اتجاهات النجوم الاثنين والثلاثين كان مجموع الاتجاهات التي تتكون منها الديرة مائة وثمانية وعشرين اتجاها.

ثم تحدث عن الملاحين العرب أمثالمحمد بن شعبان واحمد بن ماجد وسليمان المهريواهتمام المستشرقين بعلومهم ومصنفاتهم الملاحية القيمة.مشيرا إلى ما تعرض له الملاحون العرب من هجمات انتقامية من قبل البرتغاليين والهولنديين والانجليز في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، من خطف وغرق وإحراق إلا أنهم لم يتركوا المسرح البحري رغم كل العقبات التي كانت تعترض طريقهم لأن الملاحة البحرية كانت عماد تجارتهم ورزقهم ووسيلة اتصالهم بالعالم الخارجي، لذلك صمموا على البقاء في ساحة المعركة يتلقون الهزائم ويلحقونها بأعدائهم إلى أن تلاشت القرصنة في أعالي البحار واستقرت على اليابسة في شكل حكومات منظمة منها على سبيل المثال شركة الهند الشرقية التجارية البريطانية.

وتحدث عن الملاح باطايع باختصار شديد قائلا: وفي مستهل عام 1180هـ - 1766م ولد بقرية الحامي الملاح سعيد بن سالم باطايع. وكان شأنه شأن بقية فتيان تلك القرية الشهيرة بملاحيها الممتازين. فقد التحق

بالخدمة البحرية وهو في التاسعة وما أن بلغ العشرين من عمره حتى كان قد أظهر اقتدارا عظيما في علم الملاحة البحرية وبعدها أصبح فريد عصره بين الملاحين اليمنيين الجنوبيين.

ثم قال منوها بالمكانة الملاحية العلمية للحامي وأهلها: إن تكرار اسم قرية الحامي في هذه الدراسة ونسبة أكثرية مشاهير الملاحين في جنوبنا اليمني إلى تلك القرية العريقة أمر يثير التساؤل ... وهو كذلك مثير لا للتساؤل فحسب ولكنه أيضاً مثير للإعجاب والإكبار، وأحال الإجابة عن ذلك إلى كتابه الشهداء السبعة الذي يقول فيهصفحة40: كانت قرية الحامي- على صغرها - مثار اهتمام رجال البحر من الحضارمة وغيرهم ومثار نقاشهم؛ لأن أهالي هذه القرية على قلتهم كانوا إلى منتصف القرن الهجري الحالي (الرابع عشر) يملكون أسطولا تجاريا من السفن الشراعية قدر بأكثر من خمسين سفينة عابرات المحيطات، ويعتبر بحارة الحامي وملاحوها في طليعة الملاحين اليمنيين ممارسة وانضباطا وتمتعا باللياقة البحرية .. ولعب أهل الحامي دورا رائعا في ملاحة اليمن الجنوبية منذ فجر التاريخ فهم الذين كانوا يسيرون الخط التجاري القديم بين الشحر والهند والخليج وشرقي وجنوبي إفريقيا ".

وقد نوه بخبرة الربان العبقري عوض أحمد بن عروة الذي كان مثالا للبحار الماهر الموهوب بما يبديه من تصرفات غريبة وهو أعمى البصر. وكان ملاحاً متميزاً بين معاصريه في جنوب اليمن بخواص تنم عن العبقرية.

ثم تعرض فيها إلى ما أورده الملاح باطايع من عادات وتقاليد بحرية في منظومتيه مثل تسمية بعض الموانئ بأسماء الأولياء الثاوين بها، وعادة الفولة وغيرها قائلا: والطريف في منظومتي باطايع أنهما تدلاننا على أساطير البحارة العجيبة وتقاليدهم وعاداتهم وبعض هذه التقاليد باق معنا في اليمن الجنوبية إلى اليوم وهي تعطي الحديث عن الملاحة مذاقا حضاريا يتشابه مع مذاق ما قرأناه ونقرأه بين حين وآخر عن أساطير وتقاليد بحارة الأمم الأخرى ذات الصلات العريقة بالملاحة البحرية ، حتى ليخال المرء إن للبحارة في كافة بقاع الأرض معتقدا موحدا ذا اتجاهات شعورية واحدة، والحقيقة التي تختفي خلف هذه التقاليد هي أن أهوال البحر أوجدت لدى البحارة على كر الدهور ترسبات فكرية منها أن المارد البحري الهائل لا يمنح السلامة والأمان للذين يجازفون بأرواحهم في عباب أمواجه إلا بأداء مختلف الطقوس له وتقديم القرابين المختلفة بين يديه .

مشيرا إلى أن الإرشادات الخالدة التي تنطوي عليها المنظومتان هي المجاري البحرية في أعالي البحار، والجبال والتضاريس الأرضية والخلجان والشعاب الخطيرة المغمورة بالماء والضحولة في المواطن البحرية الساحلية، ومناطق التيارات البحرية والرياح، هذه المعالم الملاحية الهامة نجدها اليوم كما وجدها الملاح باطايع منذ قرنين من الزمان وكما وجدها واكتوى بنارها الملاحون الأقدمون منذ آلاف السنين . وأنها لم يؤثر على قيمتهما الملاحية استبدال السفن الشراعية الآلة بالشراع ، كما لم يؤثر عليهما اختلاف أو زوال بعض المعالم البرية كالقلاع والأشجار والمنازل التي كانت قائمة على المسالك البرية على عهد الملاح باطايع وكان - رحمه الله - قد أشار إلى مثل تلك المعالم لفائدة الملاحين في منظومتيه .

واختتمها بقوله: إنه لمن الحق القول أنه ما كان لأي اكتشاف حضاري أن يتحقق في أي مجال من مجالات التقدم في هذه الدنيا لولا هذه الخصال الإنسانية ، ولكنه من الحق أيضاً القول بأن عالم اليوم يضع تلك

الخصال الذاتية وبجانبها الأسباب الموضوعية للعلم الحديث المتطور في كفة واحدة على قدم المساواة.لكننا بإمعان النظر في صعوبات الأمس وتسهيلات اليوم نكبر في سلفنا هممهم العالية، ونرى أن أقل عمل من أعمال البر بهم لهو أن نعلم شيئاً عنهم وأن نحافظ على ماخلفوه لنا من تراث، وأن نستمد منهم القوة المعنوية في العمل الدؤوب والابتسام في وجه المكاره بغية الثبات أمام تلك المكاره ثم التغلب عليها.

ثم شرح منظومة الملاح باطايع الأولى في الإرشادات الملاحية من سيحوت إلى زنجبار والتي نظمها عام 1217هـ (1802م) مستعرضا ما فيها من المعلومات التجارية والجوانب اللغوية، وهي مكونة من 29 رباعية جاء فيها:

يـا رب سـالك تسـهل مـا عسـر ... علـى عبيـدك وسـط بحـر وبـر
بجـاه طـه النبـي خيـر البشـر ... رحـيم قـدوس سـالك يـا سـلام
وبعـد يـا صـاح أسـمع مـانقول ... لاغابت الشمس صلوا عالرسول
نقـول يـا الله بتوبـة والقبـول ... اغفر وسامح وسهل في الكلام
سـيحوت منهـا شـمرنا بالعشـي ... مـن بعـد مـا قضـينا كـل شـي
والقـبض فـي مطلـع العقـرب وفـي ... مـن بعـد ليلـة نـوفي كـل زام

ثم شرح المنظومة الثانية في الإرشادات الملاحية من مسقط إلى المخاء المشتملة على 66 رباعية والتي نظمها عام 1220هـ (1805م) مبينا ما فيها من عادات وتقاليد بحرية مثل هدية السكوني ووسية الموافي وهدية مقدم سيحوت، وتحية الموانئ بلعبة الكاسر البحرية، وما تضمنته من أمثال شعبية. ووقائع ومعلومات تاريخية، وأسماء تاريخية لموانئ حضرموت مثل سوق الاحقاف للشحر وظهار للحامي يقول فيها:

يـا الله يـا رب ... أدعـوك يـا خيـر مطلـب
تعطـي وتوهـب ... سـالك بخيـر البريـة
رحـيم قـدوس ... اكشـف لنـا الهـم والبـؤس
فـي هـذه الـروس ... نعبـر بـإخلاص نيـة
مـن تحـت صـيرة ... الفلـك قـد جـد سـيره
ربـه خبيـره ... ينظـر بعيـن العنيـة

وختم ذلك البحث القيم بقوله :" إن الطريقين البحريين اللذين أرشدنا عبرهما الملاح باطايع في سفرتنا الأولى من سيحوت إلى جزيرة زنجبار وفي سفرتنا من خليج عمان إلى المخاء هما الطريقان اللذان سلكهما أجدادنا اليمنيون مذ عرفوا الاهتداء بالمعالم البرية والاتجاهات البوصلية في مغامراتهم البحرية.وإن أساليب الملاحة التي مرت بنا في رباعيات باطايع لهي نفس الأساليب القديمة التي سار عليها أسلافنا في أسفارهم البحرية.والفضل يعود للملاح باطايع في تسجيل تلك الإرشادات.. لقد أدرك الملاح باطايع،كما يبدو، أن إرشادات ابن ماجد وكذا إرشادات الحكم سليمان المهري اليمني تسجيلات بالغة التعقيد بالنسبة لثقافة النواخيذ والربابنة والمعالمة الاعتياديين، وأن هؤلاء محتاجون إلى إرشادات مبسطة العبارة مقربة إلى الفهم مسهلة للحفظ والتطبيق، فوضع منظومتيه فجاءتا وافيتين بالهدف الذي قصد إليه.وإنه لمن تحصيل الحاصل القول أن قيمة المنظومتين بالنسبة للدراسة البحرية الحديثة قيمة أكاديمية، ولكنها في مجال حفظ التراث اليمني شيء يضيف إلى المكتبة العربية لوناً جديداً من الحضارة اليمنية لم يسبق وإن اهتم به أحد غير الملاح باطايع وحده رحمه الله".

إن شرح الأستاذ بامطرف لمنظومتي باطايع يعد شرحا ممتازا جمع بين القديم والحديث وبين المعرفة والخبرة، يخال للقارئ عند قراءته بأن مؤلفه ربانا ماهرا خبر البحر وعرف مسالكه ومجاريه، وهو في الحقيقة لم يكن قد عمل في هذا المجال، ولكن المهتم والشغوف بأمر قد يتقنه أفضل من المختص فيه كما هو معلوم. وهو وإن سافر على السفن الشراعية كراكب – إلا أنه كان صاحب لسان سؤول وقلب عقول، يعي كل ما يلقى عليه ويسأل عن كل ما يعزب عن علمه ويستفيد من كل ذي علم وإن صغره في السن والخبرة، حتى صارا مرجعا للباحثين في العلوم البحرية والفلكية والتاريخية.

الرفيق النافع في عيون الباحثين العرب والغرب:

لاقى صدور كتاب الرفيق النافع في شرح منظومتي الملاح باطايع رواجا واسعا في الأوساط العلمية في حضرموت خصوصا وعموم الوطن العربي، فهو أول دراسة علمية معاصرة فريدة في بابها تتحدث عن المرشدات البحرية لأحد ربابنة جنوب الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجري لم يسبقه في دراسة مادتها أحد من الباحثين الحضارمة والعرب.

يقول عنه الأستاذ عبدالرحمن الملاحي: في عام 1972م _ نشر الأستاذ المرحوم محمد عبدالقادر بامطرف كتابا بعنوان _ الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع _ عرّف فيه الربان سعيد سالم باطايع لقارئه ، شارحاً مرشدتين حواهما الكتاب شرحاً وافياً. أثار صدور الكتاب انتباه كل المهتمين بالملاحة البحرية من باحثين محليين وأجانب، وفي مسقط رأسه بالتحديد تجدد الاهتمام بله التعلق بشخصيته العلمية البحرية اهتماماً قارب العشق ، فالكل من أبناء هذه المدينة _ الحامي _ يتحدثون عنه باعتزاز وفخر، وحتى قال قائلهم (إذا كان أهل الخليج يفتخرون بالملاح ابن ماجد ، فإنه يحق لنا نحن أبناء الحامي أن نفتخر بالملاح باطايع). (9)

ويقول عنه في دراسة أخرى منوهاًبأهمية ذلك الكتاب: من الباحثين اليمنيين الذين أسهموا في أغناء المكتبة العربية البحرية بأبحاثهم الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف، الذي نشر منظومتين إرشاديتين للملاح سعيد سالم باطايع من ملاحي القرن الثامن عشر الميلادي في كتاب عنوانه الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع. وتعود أهمية هذا الكتاب إلى أنه أول المباحث العربية عامة التي اهتمت بالتعريف بأحد الملاحين العرب الجنوبيين البارزين، وتزداد الدراسة أهمية أنها تحدثت عن معارف ملاح قدير، عاش في مرحلة من تاريخ الملاحة العربية يعتقد فيها انقطاع معارف ملاحيها عن معارف سلفهم من ملاحي القرن السادس عشر وما وضعه الشيخان أحمد بن ماجد وسليمان المهري وبحثاه من علوم ونظريات مبتكرة، ولم يشر الأستاذ بامطرف ويبحث هذه الفترة وملامح التحول في العلوم البحرية الطارئة، لم يشر بصورة مباشرة ولكنه وبتقديم هذا الملاح من خلال مرشداته الرائدة وما تحويه من اتجاهات دالة على قياس الدرجات وأجزائها فقد سلط بجهده الرائع الضوء على أول المداخل إلى الطريق الشائك نحو مقصد نقطة التحول الضائعة. (10)

ويقول عنه بدر الكسادي: الأستاذ بامطرف كاتب قدير ومعروف بخبراته وبحوثه التاريخية وأدبه الجم، ويعتبر في الصف الأول من أدباء الجنوب وله العديد من المؤلفات منها الرفيق النافع الذي تناول فيه منظومتي باطايع بعد أن قام بتدوينهما وشرحهما، وهو يعد وثيقة تاريخية تثبت ما تمتع به أهالي الحامي من خبرات تاريخية في فنون الملاحة البحرية. (11)

وقد قام الأستاذ بامطرف بإصدار كتابه المذكور في مطبعة السلام بمدينة عدن في شهر جمادي الثانية عام 1392م الموافق لشهر يوليو 1972م ثم طبعه للمرة الثانية عام 1977م في المكتبة الوطنية بعدن. وقد طبع قبل أن يصدر الأستاذ الباحث في التراث البحري حسن صالح شهاب (1931-2012م) كتابه "أضواء على تاريخ اليمن البحري" بخمس سنوات، وقد جعله مرجعا له، كما جعله أيضا من مصادر كتابه الأخير المسمى"المعجم المفصل في مصطلحات الملاحة العربية القديمة والحديثة في المحيط الهندي" الصادر في الكويت 2010م، وسمعته يثني عليه وعلى مؤلفه ومما قاله عنه أنه كتاب ممتاز في دراسة الملاحة البحرية في جنوب الجزيرة العربية.

أما الباحثون الغربيون فقد استهوتهم مادة الرفيق النافع ولعل من أبرزهم الدكتور روبرت سارجنت صديق الأستاذ بامطرف حيث كانا يعملان معا في الاستشارية البريطانية، ثم عمل أستاذا للثقافة العربية في جامعة كامبردج ببريطانيا، وقد كان مهتما بالتاريخ والتراث الحضرمي ومتابعا لصديقه بامطرف عندما كان يقوم بتجميع مادة الكتاب ولما انتهى منه عرض عليه أن يقدمه إلى مركز أبحاث الشرق الأوسط بجامعة كامبردج لطباعته وأن يترجمه باللغة الانجليزية ويصدر باللغتين العربية والانجليزية باسميهما ولكن - كما يقول الأستاذ بامطرف نفسه - لم يتم شيء في هذا المجال.

ولكن الأستاذ بامطرف رحمه الله لم يبخل على صديقه المذكور من الاستفادة بمنظومتي باطايع وشرحه المذكور عليها، فقد كان يطلعه عليه بين حين وآخر، ولما عزم على المشاركة في المؤتمر البحري الذي عقد في روما عام 1965م، جعله مرجعا أساسيا له، وقد كانت بعض الرباعيات من منظومتي باطايع مثار إعجاب المهتمين بالتراث الإنساني في ذلك المؤتمر البحري. (12)

يحدثنا عن تلك المشاركة بدر الكسادي بقوله: كانت السفينة الشراعية الحضرمية مدار بحث شيق في الدراسة التي تقدم بها البرفسور الدكتور سرجنت الانجليزي في مؤتمر روما، عندما عرض شرح منظومتي الملاح الحضرمي الشهير سعيد سالم باطايع الذي أنجبته قرية الحامي،وقد حازت المنظومتان الإعجاب في المعالم البحرية والتوجيه المتقن.والفضل كل الفضل في إبراز هاتين المنظومتين في المؤتمرات البحرية العالمية يرجع إلى الأستاذ بامطرف الذي قام هو بترجمتها من اللغة العربية إلى اللغة الانجليزية. (13)

وقد قام الدكتور سارجنت المذكور بكتابة دراسة مقارنة بين نص بامطرف الذي أورده في الرفيق النافع وبين نص مخطوطة تحصل عليها في ميناء الحامي عند زيارته له عام 1964م زوده بها النوخذة عوض مبارك

بقرف، وقد كتب تلك الدراسة عام 1982م تحت عنوان (من حضرموت إلى زنجبار قصيدة مرشد السفينة النوخذة سعيد باطايع"الحامي") قدمها لجامعة كامبردج بلندن قال فيها:

"زودت بهذه النصوص من قبل صديقي الشيخ محمد عبدالقادر بامطرف، ثم تمكنت فيما بعد في طلب المشورة والاستعانة بنص أفضل مع عوض مبارك بقرف من أهل الحامي حيث ناقشت وعرضت النص مع العديد من النواخذة أخيرا في مدينة المكلا في منزل بامطرف ثم التعليق وأخذ الآراء على القصائد من قبل النواخذة مثل كرامة بن مبارك باحميش من سيحوت والنوخذة عبدالله بن ناصر بن الأسد من حصوين، والشيخ علي جابر مسؤول في ميناء المكلا والشيخ علي بن أبوبكر بامعيبد والشيخ عمر عبدالله الكسادي ، والنوخذة سالم عوض الشقري من الديس الشرقية.

وبالتالي قام بامطرف بإجراء بعض الاستفسارات الإضافية في الحامي وتم نشر القصيدتين كـ(دراسة في التراث اليمني) في عام 1977م. بالرغم من الادعاء بأنها محلية إلا أنه غير مناسب إلى حد ما، فقصيدة باطايع في الحقيقة تعود أو تنتمي إلى أصل شائع من التراث البحري للخليج الفارسي وعمان وأماكن أخرى".[14]

وبقي سارجنت يراسل صديقه بامطرف وهو ببريطانيا في كل ما يستجد له من أمور بحثية ومنها تلك الرسالة التي قدم له فيها مجموعة من الأسئلة عن العادات والتقاليد البحرية لدى أرباب السفن الشراعية في جنوب الجزيرة العربية، مثل السنجرة وتحية الموانئ وعمل الدلال في الميناء وتقسيم ريع السفينة وعدد طاقمها ومسؤولياتهم وكيفية استئجارهم وقانون الجدوح والغرق ورمي المال في البحر وغيرها من العادات المتبعة، وهي مطبوعة بالرونيو في 9 صفحات، كتبت عليها تعليقات بخط بامطرف وكتب في رأس أول صفحة منها ما يلي: "هذه إجابات على أسئلة قدمها لي الدكتور روبرت سارجنت في إحدى رسائله إلي، وقد استقيت مادة الإجابات من عدد من الملاحين البحرين الحضارمة الموثوق به. ورسالة الدكتور سارجنت موجودة عندي وهي باللغة الانجليزية".

وفي مطلع التسعينات الميلادية لفت كتاب الرفيق النافع وماحواه من مرشدات بحرية لباطايع انتباه باحث فرنسي يدعي "ميشيل نيتوه" متخصص في اللهجات والصوتيات فقدم من خلاله دراسة علمية لنيل شهادة الدراسات المعمقة ما فوق الماجستير في اللهجات العربية، قدمها إلى جامعة اكس - ان - برفانس - مرسيليا - في شهر يونيو عام 1995م بعنوان (منظومتي الشعر الملاحية للربّان اليمني سعيد سالم باطايع) استنتج فيها بأن باطايع كان من أبرز بحارة عصره ، وأن منظومتيه الملاحيتين رغم أنها تعود إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي إلا أن مضامينها وتقاليدها تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، كما أن هذه المنظومتين ضمّت كل المعلومات اللازمة للبحار في الفلك والمواسم والرياح وغيرها.[15]

بامطرف ودوره في تشجيع الدراسات البحرية الحضرمية:

كان الأستاذ بامطرف من المشجعين للباحثين والمهتمين للكتابة عن تراث حضرموت البحري والشعبي، فلم يبخل على أحد في يوم ما بل يقدم لهم المراجع، بل ومؤلفاته المخطوطة، عن حسن ظن ونية،حتى أخذت

بعضها منه ولم تعاد إليه ونسبها ذلك الآخذ بل السارق لنفسه كما هو معروف في مؤلفه القيم "الهاجس والحليلة" الذي أخذه منه بحيلة المدعو حسن مجلي ولم يرجعه إليه ويقال أنه ضمنه رسالة ماجستير ونسبها له. (16)

في عام 1967م تعرض الأستاذ بامطرف للاعتقال في سجن المنورة بالمكلا من قبل الجبهة القومية التي أسقطت السلطنة القعيطية وتولت دفة الحكم، وكان معه جماعة من زملائه من أبرزهم المرحوم الشيخ بدر أحمد الكسادي نائب لواء المكلا، وقد ضمتهم غرفة واحدة، فكانا في كل ليلة يتذاكران في شؤون التراث الحضرمي الشعبي والبحري قتلا لوقت الفراغ، وكان بامطرف يقوم بتبييض بعض مؤلفاته ومنها كتابه القيم الشهداء السبعة ضد الغزو البرتغالي على مدينة الشحر الذي فرغ منه بتاريخ 1969/9/25م.

ولما رأى الأستاذ بامطرف ما يختزنه زميله الكسادي في ذاكرته من معلومات قيمة عن البحر وعلومه وعادات وتقاليد البحارة وصناعة السفن الشراعية اقترح عليه وشجعه أن يكتب تلك المعلومات على ورق البياض وستكون مشروع كتاب يحمل اسمه كما يحدثنا بدر الكسادي نفسه بقوله:

"ما كنت أفكر يوما أنني سأكتب عن السفينة الشراعية وأجزائها الثابتة والمنقولة وعاداتها وعوائدها في جنوب الجزيرة العربية شيئا، ولكن جرتني الأقدار إلى سجن المنورة بالمكلا كمعتقل في زنزانة رقم 11، ومن حسن حظي أن هذه الزنزانة ضمت الأستاذ المعروف محمد عبدالقادر بامطرف كمعتقل، وبحكم عيشتنا وسكنانا معا في هذه الزنزانة بقينا نتجاذب أطراف الحديث في لياليا المظلمة وأحيانا يجرنا إلى شؤون البحر وعوائده وأساطيره ورحلات السفن الشراعية وأوقات رحلاتها الموسمية ، وذات ليلة اقترح علي الأستاذ بامطرف تدوين ما هو مسجل بذاكرتي من معلومات عن شؤون البحر ولكني ترددت، وكان الأستاذ بامطرف يلح علي بشدة على التدوين والتأليف فوعدته بان أنفذ فكرته إذا سمحت ظروف المعتقل القاسية وعندها اكتب كتابي هذا وأنا في داخل المعتقل بعد أن أصبحت بعض الظروف مواتية، وبات الحصول على أدوات الكتابة ميسورا، وإذا كان هناك من فضل لإبراز هذا الكتاب فهو يرجع إلى الأستاذ بامطرف الذي شجعني وساعدني على إبرازه، وليس لدي شيء أقوله له غير الشكر والوفاء". (17)

وقد جاء ذلك الكتاب مؤلفا جامعا يحمل عنوان اقترحه الأستاذبامطرف (القاموس البحري) في مصطلحات الملاحة البحرية في جنوب الجزيرة العربية، وهو كتاب قيم فريد في بابه يرجع الفضل في جمعه إلى الأستاذ بامطرف رحمه الله، وقد حفظ به مؤلفه جانبا من التراث البحري لحضرموت كاد أن يندثر. وأهداه إلى بامطرف بقوله:" إلى الأستاذ محمد عبدالقادر عمر بامطرف أهدي كتابي هذا رمز شكر وعرفان".

وقدم له الأستاذ بامطرف بمقدمة ضافية تعد من أروع المقدمات التي كتبها جاء فيها:

"هذا الكتاب الذي نقدمه للقراء تحتاج إليه المكتبة العربية لسد ثغرة في ميدان البحوث الأكاديمية التي تقدمته في صناعة الملاحة البحرية التي اشتهر بها جنوبنا اليمني، وهي صناعة عفا عليها الزمن أو كاد، وذلك لعدم قدرتها على الصمود والمنافسة أمام السفن التجارية.. .

والكتاب الذي أسماه مؤلفه "القاموس البحري"، تناول السفينة الشراعية بالتشريح فأخذها مادة خاما وسار معها منذ وضع أول قطعة خشبية في بنائها حتى استوت سفينة كاملة بأجزائها الثابتة والمنقولة ، والعلاقات لتي كانت قامة حينذاك بين البحار والقبطان ومالك السفينة والتاجر والمسافر تحت ظروف متنوعة، كما شرح

العوائد والتقاليد والقوانين التي تحكمت في جوانب مهمة من الملاحة البحرية قديما وحديثا ، كما ذكر الأساطير والمعتقدات التي خيمت على رجال البحر وذويهم.. .

والمؤلف لم يكن دخيلا على هذه الصناعة فهو أولا من أهالي قرية الحامي وهذا الانتساب وحده يكفي أن يجعل كلمته مسموعة في شؤون السفن الشراعية، تلك القرية العريقة ذات التاريخ الملاحي الغني بالخبرة والدراية، وعرفت منذ فجر التاريخ بكونها الرافد الأساسي لميناء الشحر تمدها بالبحارة الأقوياء المغامرين حتى استحق أبناؤها أن يطلق عليهم من بين الحضارمة وصف (أبناء التربة الطيبة الملتصقين بها). وينتسب إلى أسرة عريقة من أسر الحامي عرف رجالها بشهرتهم الملاحية قبل أن يعرفوا بأية شهرة أخرى .. ولم يقعد منهم على دست الحكم إلا الشيخ الذي لم يعد في مقدوره مصارعة الموج .

ومما يتصف به القاموس البحري أنه جديد في موضوعه .. وقد وضعه مؤلفه من الذاكرة وتلك ظاهرة جديرة بالإعجاب. وقد كنت رفيقا له طوال الفترة بين 67/9/27 و 1969/12/8م، نقوم بمناقشة مادة الكتاب إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم يقوم المؤلف بتدوين ملاحظاته في الصباح التالي".[18]

وقد وقفت على مسودات القاموس البحري لمؤلفه المرحوم بدر الكسادي في مكتبة د.عادل الكسادي وجدها ضمن أوراق المؤلف، مكتوبة بقلم الرصاص وعليها تصحيحات وتعديلات الأستاذ بامطرف بالقلم الأحمر.

وبعد أن أهدى الكسادي مؤلفه إلى بامطرف لأنهأحق به منه على حد قوله، بقي الكتاب في مكتبة بامطرف ولم يتمكن من طباعته للظروف السياسية آنذاك، ولكنه نقل عنه في كتابه الرفيق النافع عند طباعته عام 1972م، حتى آذن الله له بالظهور لأول مرة بمراجعة أستاذنا الباحث حسن صالح شهاب، وصدر عن المجمع الثقافي بأبوظبي بالإمارات العربية المتحدة سنة 2004م، ثم طبع للمرة الثانية عام 2009م من غير زيادة ولا نقصان سوى اختلاف الصفحات فقط، عن نفس المجمع الذي بدل اسمه هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ثم جددت طباعته للمرة الثالثة فينفس المجمع الذي حمل اسم هيئةأبوظبي للسياحة والثقافة عام 2012م.

وبعد أن انتهى بدر الكسادي من تأليف كتابه القاموس البحري، اقترح عليه زميله بامطرف أن يؤلف كتابا عن تاريخ الحامي ودور أبنائها في الملاحة البحرية، لأنه من أبنائها وأعرف منه بأخبارهم وأصحاب مكة أدرى بشعابها، كما يقول المثل، ووضع تحت تصرفه مؤلفاته المخطوطة التي بيضها ومنها: الشهداء السبعة، والهجرة اليمنية، والرفيق النافع، وشخصيات لا تنسى، فقام بكتابة موضوعات الكتاب ومواضيعه الأولى مع المقدمة تحت إشراف بامطرف في السجن ثم كتب باقيه عندما خرج من السجن عام 1971م، ولكنه لم تمض عليه أشهر من إطلاق سراحه حتى اعتقل مرة أخرى في منتصف عام 1972م عندما عصفت رياح الحزب الاشتراكي الماركسي بالقادة والعلماء فسجن من سجن وسحل من سحل وعذب من عذب، وكيلت حوله الاتهامات الباطلة مع زميله القائد صالح بن سميدع وتم إعدامهما عام 1973م، ولولا ذلك الحكم الجائر الذي لحق بالمرحوم بدر الكسادي لأبرز لنا من مكنونات ذاكرته الشيء الكثير من المعلومات التاريخية التي كتب عناوينها ولم يستطع الكتابة فيها رحمه الله تعالى.

وقد طبع ذلك الكتاب مؤخرا بتحقيقنا على مسودته الوحيدة في هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة 2012م تحت عنوان (أبطال منسيون من ربابنة الملاحة البحرية العربية) بعد أن قمنا بإعادة صياغته والتعليق على مواضع منه وترجمة الإعلام الواردة بآخره، وقد تضمن الفصل الأول نبذة عن ميناء الحامي موطن أولئكالأبطال المنسيون، وتراجم لشخصيات بارزة في الملاحة كالملاح باطايع والربان عوض أحمد بن عروة وعمر عبيد باصالح ومحمد عوض عيديد وعمر عبيد باصالح ومحمد عبدالله باعباد، بالإضافة إلى منظومتي باطايع وشرحهما. وتضمن الفصل الثاني الحوادث البرتغالية على حضرموت عموما والحامي على وجه الخصوص، ونبذة عن أسطول الحامي التجاري منذ القرن الثاني عشر الهجري، ووصف رحلة قام بها المؤلف وهي مغامرة بحرة من ميناء أيل بالصومال إلى ميناء الحامي عام 1931م، ثم أشاد بدور أهل الحامي في الملاحة عبر التاريخ وذكر الأسر التي امتهنتها.

فكتابا بدر الكسادي (القاموس والأبطال) يعتبران من حسنات الأستاذ بامطرف المتعددة والتي تندرج ضمن دوره الرائد في دراسة تراث حضرموت الملاحي البحري.

ومما يعود فيه الفضل أيضا إلى الأستاذ بامطرف تشجيعه ومباركته للأستاذ الباحث عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي (1933- 2013م) في دراسة معارف ربابنة حضرموت الملاحية والفلكية خصوصا وملاحي جنوب الجزيرة العربية على وجه العموم، وقدم له بعض المخطوطات البحرية التي كانت بحوزته للاستفادة منها في أبحاثه ومنها مرشدات ومدونات جده (جد أبيه) الربان المعلم عوض بن سعد بامعيبد من مشاهير ربابنة الشحر توفى عام 1308هـ (1891)، وهي تتحدث عن يومياترحلاته البحرية من ميناء الشحر إلى مينائي بومباي وكاليكوت بالهند لست سنوات من عام 1884- 1889م.[19]وكان الأستاذ الملاحي في كل زيارة بحثية يقوم بها لأحدى الموانئ الحضرمية أوالمهرية يتجه بعد عودته مباشرة إلى بيت الأستاذ بامطرف ويعرض عليه نتائج تلك الزيارة ومناقشته في بعضها، ومنها تلك الرحلة الميدانية التي قام بها في فبراير 1987م للموانئ والرؤوس البحرية في المهرة ولما جاء ناقشه عن تسمية رأس فرتك وهل هو نفس رأس سياجورس كما ذكره ووصفه صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريتيري، وكما هو مبين في خريطة بطليموس الروماني في كتابه المجسطي، وكان يرى الأستاذ بامطرف أنه لا يوجد ارتباطا بين اللفظتين فرتك وسياجورس ويوافقه على ذلك الملاحي الذي قام بزيارة الرأسين، وتبين له خطأ ذلك وصحة ما ذهبا إليه، ويعتقد أن من نقل خريطة بطليموس، وضع اسم سياجورس، ويطلق عله أهل المهرة سيجور، على رأس فرتك فتناقله من بعده واعتبروه حقيقة ثابتة.[20]

خاتمة:

إن جهود الأستاذ بامطرف في حفظ التراث الحضرمي الشعبي عموما والبحري على وجه الخصوص، تعتبر جهود جبارة قام بها بجهد شخصي ودافع وطني للحفاظ على ذلك الموروث العظيم الذي تكتنزه حضرموت، والذي يعتبر واجب وطني على جميع أبنائها أن يحافظوا عليه ويعرفونه للأجيال وهو كما يقول

عنه: إن التعرف على تراثنا الحضاري أمر واجب من الناحيتين التاريخية والاجتماعية، ذلك إن مثل ذلك التعرف يولينا الدافع الأخلاقي على مجاراة طبيعة العصر من حيث ملامحه التقدمية بالثبات والصبر والمثابرة نفسها التي واكب بها أسلافنا معالم التقدم في أعصرهم السابقة . لقد واكب أسلافنا عصرهم بروح المغامرة والشجاعة ولم يكونوا متهورين أو مندفعين انفعاليا، كانوا يقدرون للعناصر الطبيعية قوتها ودقة حسابها ، وكانوا في الوقت نفسه يعملون على ما يمكنهم من استخدام تلك القوة وتلك الدقة الحسابية لصالحهم ، ومن أجل ذلك ركبوا أمواج الرياح الموسمية إلى البصرة وعاشوا مع البروج الشمسية في هدنة مستديمة". (21)

وللأستاذ بامطرف أسلوبه الخاص في مقابلة النصوص وتحقيقها وغربلة الرواية الشفهية آخذابها بعين الاعتبار ويقول عن ذلك:" التدوين التاريخي يتجدد، بالضرورة،بالاستدراك والتهذيب والمراجعة في منطلقه نحو الكمال .. ويتحقق ذلك التجديد بتسليط الأضواء على الحقيقة التاريخية المطمورة بالعثور على الوثائق التاريخية الصحيحة وفحصها، والتوثق، بقدر المستطاع، من أصالتها، وبالتثبت من صحة الرواية المحلية المستفيضة". (22)

وهو كما يقول عنه زميلهأستاذنا الملاحي: "من الكتاب القلائل المعاصرين المستجابين لتطورات الفكر الأوربي المعاصر، أسلوبا ونهجا، بل انه من أفذاذ الكتاب اليمنيين الذين ينهجون نهج التحقيق والتحليل في الكتابة التاريخية، فلم يكن من أولئك الذي يطلقون الخبر على عواهنه، ولايقبل تلقي الخبر أيضا بشوائبه، فيقف عند كل مقولة ومعلومية يتفحصها ويدقق فيها حتى يقتنع بها .. وقد كان شعلةً أضاءت لجيله طريق البحث عن خبايا التاريخ وخزائنه المدفونة". (23)

هذا هو الأستاذ بامطرف قدم خدمةً جليلةً لامته بإحياء تراثها الحضاري البحري والشعبي، وخير شاهد على ما ذكرنا مؤلفاته العلمية التي تبرزه قامة علمية أديب ومؤرخ عربي قدير استحق بكل جدارة أن يمنحه اتحاد المؤرخين العربوسام المؤرخ العربي في يناير 1992م، بعد وفاته بثلاث سنوات وست أشهر. مع أنه كان في حياته ينفي عنشخصه، بتواضع، صفة الكاتب المؤرخ ويرى نفسه أنه باحث تاريخي يسعى لإثبات الحقائق بما يعتقده من صحة القرائن التي يكتشفها خلال بحثه..(24) وهكذا هم الحضارمة في التواضع يضعون أنفسهم في مؤخرة القائمة وهم في الحقيقة على رأسها بأدبهم وعلمهم، ومآثرهم وإبداعاتهم الخالدة، حتى أثنى عليهم الغرب قبل العرب قديما وحديثا بما قدموه للإنسانية من خدمات جليلة في المجالات العلمية والدعوية والخيرية في وطنهم ومهاجرهم المتعددة.

رحم الله الأستاذ بامطرف فهو حاضر معنا من خلال مؤلفاته العلمية الرائدة في التاريخ والأدب والتراث الحضرمي، ومحاضراته القيمة التي كان يلقيها في الأمسياتالأدبية والفعاليات الثقافية.

نرجو أن نكون قد وفقنا في توضيح ذلك الدور الرائد الذي اضطلع به الأستاذالمؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف في خدمة ودراسة التراث الملاحي البحري لحضرموت .. والله ولي التوفيق.

يوم الخميس1يناير2015م

الحامي - حضرموت

الهوامش والمراجع:

1) مقدمة القاموس البحري ص 17-19، بدر الكسادي، المجمع الثقافي أبوظبي 2004م.
2) التراث وصناعة الشعر، ص8، مؤسسة الطباعة والنشر عدن.
3) الشهداء السبعة ص40- 41، دار الحرية للطباعة، بغداد 1974م.
4) الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع ص24،مطبعة السلام، عدن 1972م.
5) المرجع السابق ص 25.
6) المرجع السابق ص 26.
7) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص 40.
8) أبطال منسيون من ربابنة الملاحة البحرية العربية ص136، اعتنى به محمد علوي باهارون، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي 2012م.
9) الكشف عن جوانب من حياة الملاح باطايع ص10،11، محمد علوي باهارون، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت 2012م.
10) حول الدراسات البحرية العربية، نشرة الساعية ص6،العدد (11) مايو 2005م ، لجنة إحياء التراث البحري والشعبي بالحامي.
11) أبطال منسيون، نفس المرجع السابق.
12) الرفيق النافع ، مرجع سابق، ص 96.
13) أبطال منسيون، مرجع سابق ص 20.
14) ميناء الحامي في عيون الباحثين والمؤرخين العرب والأجانب ص 71-72، محمد علوي باهارون، بحث غير منشور.
15) الكشف عن جوانب من حياة الملاح باطايع، مرجع سابق، ص 78، 79.
16) بامطرف والتراث الشعبي، عبدالله صالح حداد، مجلة سعاد ص 14، العدد الرابع سبتمبر 2008م، جمعية الشحر للثقافة والتراث.
17) القاموس البحري، مرجع سابق، ص 23-24.
18) المرجع السابق، ص 11-17.
19) الربان بامعييد ويوميات الطريق، عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي، مجلة آفاق التراث الشعبي ص 53-54، العدد الأول 2007م، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين – حضرموت.
20) بامطرف ورحلة البحث عن الحقيقة التاريخية، عبدالرحمن الملاحي، مجلة سعاد ص 13، العدد الرابع سبتمبر 2008م، جمعية الشحر للثقافة والتراث.

21) مقدمة القاموس البحري، مرجع سابق، ص 20.

22) في سبيل الحكم ص 7، الطبعة الثانية، دار الهمداني، عدن 1983م.

23) بامطرف ورحلة البحث عن الحقيقة، مرجع سابق.

24) نفس المرجع السابق.

١٠٦

محمد عبد القادر با مطرف

1915 – 2015م

شاعرٌ شعبيٌ

أ / محفوظ سالم ناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد عبد القادر بامطرف

1915- 2015م

شاعراً شعبياً

لـ: محفوظ سالم ناصر

من قبل

شاعرٌ أنت والكون نتثر "صلاح عبد الصبور"

في ترجمته المستفيضة لحيوات الشيخ الجليل محمد عبد القادر بامطرف يذكر صديقنا الباحث المجتهد الدكتور أحمد هادي بن سالم باحارثة أن والد صاحب الترجمة عبد القادر عمر عوض بامطرف "كان من المولعين بقراءة المقامات" الشعبية، فكان أن سرت (عدوى) الاهتمام بالمقامات إلى (الابن)، وتعدى اهتمامه بها موضع المولع بقراءتها إلى موضع الباحث في كل شاردة وواردة فيها فألفيناه يعزي ما يتحقق لها من ذيوع وانتشار "إلى سهولة ألفاظها وطلاوة معانيها وحلاوة فكاهاتها وعمق توعيتها وجودة وسبك معانيها وتلمسها الجوانب الإنسانية بالنادرة اللطيفة والموعظة الحسنة"[1].

ومن ما تأتى له الوقوف عليه من مقامات شعبية رأى أن من المألوف أن ينأى بها أصحابها بعيداً عن "التعقيد أو التقعر في الإملاء أو الكتابة أو الرواية"[2].

وهداه تقصيه لها إلى أن موضوعاتها تتمحور "التوعية الاجتماعية والنقد لبعض الظاهرات الاجتماعية والسياسية الداخلية والخارجية"[3].

كما رأى انه "لا يشترط في المقامة أن تكون كل وقائعها مستمدة من الواقع، بل إنها تحتمل الواقع الممزوج بالخيال كما تحتمل التجسيم والمبالغة الطريفة والتورية الكلامية مرصعة بالمحسنات اللفظية والأمثال الفصحى والعامية، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار الموضوعية الدالة،سواءً كانت من نظم كاتب المقامة أو من نظم غيره من الشعراء المعروفين أو المجهولين"[4].

1

2

3

4

وقد أتى بشاهدين- تطبيقاً- لما ذهب إليه وسقناه على ما تقدم من سطور، وهما مقامتان شعبيتان يدخلان في باب أدب وقصص الرحلات.

الأولى من هاتين المقامتين لـ(بو عيدروس) القاضي المؤرخ، الشاعر الموسيقار عبد الله محمد باحسن بن جمل أو جمال الليل[5] (1278هـ/ 1861م- 1347هـ/ 1928م) وقد أسماها (متاعب الأسفار في رحلتي إلى زنجبار).

فيما الثانية مسمّاة بـ(الرحلة المخبرة.. بنوادر بربرة) وهي للأديب الملحن الشاعر الشعبي سعيد بن علي بن سعد با معيبد (كانت وفاته سنة 1340هـ)

ونحن كما يقول الأستاذ بامطرف "إذا نظرنا إلى المقامات التي كان يكتبها كل من باحسن وبا معيبد نجد أنها تتشابه من حيث الشكل الأدبي العام، أي أنها تُكتب بلغة يمتزج فيها اللفظ السهل الفصيح باللفظ العامي المتداول، وكانت تلتزم السجع في جُملها وإنها قد تراعي أو لا ترعي القواعد النحوية"[6].

وقد علل ذلك بتحقيق "إذاعتها على أوسع نطاق ممكن داخل مجالس باحسن وفي الأوساط الشعبية في الشحر وما جاورها من مدن الساحل اليمني الجنوبي"[7]

وبما يوحي لنا أنه لم يقف عند تخوم سماعه للمقامات الشعبية مقروؤة من والده المولع بقراءتها، ولكنه زاد على ذلك في مراحل تالية من سنى عمره فسمعها "تُروى على لسان الربان عبد الرحيم الحوري من أهالي بلدة الديس الشرقية، وعلى لسان عبد الرحيم غوث من أهالي بلدة غيل باوزير، وسمعتها تُروى على لسان الربان شيخ بن محمد باعباد من أهالي بلدة الحامي وعلى لسان عوض با حسن من أهالي مدينة المكلا.. وعلى لسان محمد محسن مدي من أهالي عدن"[8].

وتحت عنوان (المقامات الشعبية في مجالس باحسن) حدد أغراض تلك المقامات فقال: أما أغراض تلك المقامات فأنها كانت تختلف بعضها عن بعض.. وكأن باحسن وبامعيبد قد قسما العمل بينهما في رصد أغراضها. كان باحسن يلتزم الإرشاد والتوجيه الاجتماعي في مقاماته، وكان با معيبد يلتزم النقد الكاريكاتوري في مقاماته بالكلمة المأنوسة المعبرة.. المثيرة للضحك"[9].

وبالعودة إلى الباحث باحارثة وترجمته المستفيضة المعمقة لحيوات الأستاذبامطرف نجده يشير إلى أن الأخير كان في طفولته "ذا أذن متذوقة فكان يعجب بما يسمعه

5

6

7

8

9

من أبيات مغنَّاة، ولاسيما في الأعراس، ما يشده إلى حفظ كلماتها، وربما طلب من المغني أو المنشد كتابة تلك الكلمات التي أعجبته دافعاً أجرة على ذلك".

ولا غرابة في هكذا سلوك من بامطرف (صبياً) ففضلاً عن ميله الفطري للشعر والغناء والتاريخ والتراث هناك الوسط الأسري الذي نشأ وترعرع وشب فيه.. وهناك مجتمع الشحر الطروب الميَّال للإطراب والطرب، وقد كان مجيء بامطرف إلى الدنيا والعيش في ذلك المجتمع وبين ظهرانيه تمور حركة فنية ناشطة يقودها باحسن الذي يصفه بامطرف "بالعبقري والمجدد والمفكر والقائد الحصيف الذي يخلق الأجواء الصالحة ويهيئ الظروف المواتية لموهبته ليؤدي رسالته على أكمل وجه رغم كل المعوقات والتثبيط للهمم"[10].

بعبارة أخرى فإن بامطرف جاء إلى الدنيا قبل الإغماضة الأخيرة لـ(باحسن الرائد الفنان) بنحو (14 عاماً). وبالتالي لا نستبعد أن يكون قد عرفه عن قرب أو تأتى له حضور مجلس من مجالسه أو حتى سمر من أسماره واستمع إلى ما يغنى وما يقال من أشعار ومقامات تركت أثراً بوجدانه، ورسخت موشومة بذاكرته تجلت لاحقاً بعد اختمارها لديه في عطاءات أدبية مثل كتابه الموسوم بـ(باحسن الرائد الفنان) الصادر عن دار الهمداني عذن العام 1985م، وكتابه الآخر (المعلم عبد الحق) الذي فرغ من كتابته في منتصف العام 1964م. ولا نحسب أحد أصدقاء والده حين التقاه في الحبشة "في أول رحلة يقوم بها خارج الوطن عام 1930م قبل أن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وأهداه نسخة ثمينة من ديوان الشاعر الشعبي الذي أحبه بامطرف صغيراً وهو المعلم سعيد عبد الحق الدموني".. لا نحسبه قد دار بخلده أن الصبي بامطرف الذي أهداه الديوان سيأتي عليه يوم يجلي فيه كل شاردة وواردة في ما بين دفتي الديوان؟

بل وأنه سيصبح ذات يوم مثل صاحب الديوان شاعراً شعبياً يقدس الكلمة ويعي رسالة الشاعر؟

كان بامطرف قد عرّف الشعر الشعبي بأنه "البساطة الفنية المشرقة التي تخاطب عقول الأفراد والمجاميع بتصوراتها للحاضر والمستقبل في لهجة عادية مألوفة"[11]

وبرأيه "إن الشعراء هم عيون الإنسانية المبصرة،والعيون من أكثر الجوارح حساسية،وكذلك كان الشعراء من أكثر الناس تأثراًبواقع حالهم في مرارته وحلاوته، وتقع عليهم مسئولية التبصرة لمن حولهم"[12].

10

11

على هذا الأساس كان يرى أن مما يوجب التبصير أو التبصرة به واقع ما قبل الثورة لإدراكه أن من لم يعيشوا أو يدركوا كنه ذلك الواقع لن يدركوا ما للثورة من قيمة وأثر. وقبل أن يسوق شاهداً أو شواهد لذلك الواقع راح في إيجاز وبساطة يستقطر من عصارة التجربة تعريفه للثورة:

الثورة كلها نقاء..

دائم وخدمة جماهير

وليس كراسي وثيره

يتسلقوها الطراطير

ذا قول بنفسي سمعتُه

من ناس أصحاب فراسه

ذي هُم على الحق ساروا[13]

ذا قول أهل الرياسه

أيضا وقالوا جدودي

كلام مبني على ساس

شر الخلايق مضرَّه

من يظلم الناس للناس

وحين عنَّ له إبانة قيمة وأثر الثورة لمن كان على جهل بها أو من يأبى إلا أن يتجاهلها راح يستدعي من ذاكرة ما قبل الثورة شاهداً ليس بمقدور أحد الجرح في شهادته،اسمه (بو ريّا)، و (بوريا) هذا كان "شاعر مشهور من مدينة (بور) عاش في القرن العاشر وربما الحادي عشر الهجري، وكان فلاحاً فقيراً أرغمه أحد الإقطاعيين على التنازل عن قطعة أرض صغيرة كانت له يعيش عليها هو وأفراد أسرته، وأغرقه في الديون بالربا الفاحش، وتسبب في شقائه وتعاسته حتى أرغمه على الهجرة حيث مات في أحد المهاجر مقهوراً. وقد كتب أبو ريا قصيدة شعبية يصف فيها مأساته ويصب جام غضبه على الظلم وأهله، ولم يبق لنا من قصيدته تلك إلا مطلعها الذي يقول:

12

13

يقول بوريه على حضرموت لولب من الرحمن مفروت[14]

سخرية لاذعة مترعة بالمرارة من (بوريه) وهو يرى الحنفية أو الصنبور (اللولب) قد فتحت عن آخرها وراحت تسكب مآسي وشرور على رأس حضرموت الإنسان والمكان، دون بارقة أمل في إغلاق اللولب إياه، وإمعاناً في سخريته عزا (بو ريه) افترات اللولب لـ (الرحمن) فيما هكذا فعل هو شيطاني دون جدال.

وكأننا بشاعرنا بامطرف أو (بوعلي) كما يحلو له توقيع قصائده.. كأنا به شاهد عيان لـ (بوريه) وأرضه تسلب منه عنوة دون وجه حق، مصوراً لنا بالكلمات مشهداً تراجيدياً ينفطر له القلب ولنتأمل بعيون البصيرة قبل البصر:

مسكين (بوريه) حليف المحن

من قسوة الأوقات حائر

ومن مساوي الظلم وأهل الفتن

وأحوال لي تعمي البصائر

مجهوده استاكل وأهله شتوت[15]

مده لهم ما ذاقوا القوت

فعلا مسكين (بوريه) وأي مسكين وكأننا بملازمة المحن له أصبح حليفاً له أو في حلف معها. وكيف لا تتملكه الحيرة وما يعانيه من جور (قسوة) تلازمه في كل العهود والأزمنة (الأوقات)؟ وكأن هذا وحده لا يكفي فزادوا (بوريه) عذابات على عذاباته من يمارسون الظلم من يوعزون لهم من ليمارسونه ويزينون لهم ممارسته بممارسات (مساوي/ أحوال) تعمي كل ذي بصيرة كأبي ريَّة لاسيما وهو يرى ثمار عرقه (مجهوده) يأكلها من لم ينتجها فيما من هم أحق بها على الطوى يتضورون جوعاً (شتوت) وقد مضى عليهم زمنا (مدة) لا يجدون ما يتبلغون به ويسد رمقهم. وهنا يصور لنا (بوعلي) رد الفعل المرشم على سحنة (بوريه) وحالته النفسية الجوانية:

صارت عيونه بالدمع يسكبن

وهو فريسة وحش كاسر

14

15

عقله انطمخ والقلب جواه ون[16]

فصاح من أعلى المنابر

(يقول بوريه على حضرموت

لولب من الرحمن مفروت)

وعلى رأي (أم كلثوم).. ودارت الأيام وتبرجت شموس صباحات الثورة فجاءت بما كان مفقوداً (أمناً وعدلاً وغياب للطواغيت) كما تقول المقطوعة التالية:

دار الزمن قال (بو علي) والزمن

دورات له فيها البشائر

وقامت الثوره وطاب الدرن

والعدل قامت له دوائر

والأمن عم سيطانها والخبوت[17]

وغاب عنا كل طاغوت

نعم بالثورة أصبح تحقيق العدل وإقامة ميزانه مؤسسياً بإقامة مؤسسات (دوائر) مختصة.. كما ماعاد استتباب الأمن مقصوراً على العواصم والمدن الرئيسة وإنما شمل (عم) الصحارى الجبلية (السيطان) والمجاهل النائية الخالية من سكنى وحركة البشر (الخبوت).

وكان لك هذان يتحقق لولا أن الثورة غيّبت كل الطواغيت المتسلطة بمختلف القابها ومسمياتها.

لكن ألا تستحق هكذا تحولات أن يُعرف بها حتى تُدرك قيمتها فيتم صونها والحفاظ عليها؟

غير أن مهمة التعريف هذه يعوزها مثقفون وأدباء وشعراء مثل (بو علي) فقد آمن بامطرف إيماناً عميقاً بالوظيفة الاجتماعية للشعر بل للأدب بكل أجناسه "وأصبح الحديث عن مشكلات اجتماعية أو أبعاد سياسية أو غير هذه وتلك من القضايا محور اهتمامه، وأصبح الشعراء في احساسه قادة في مجتمعاتهم يقودونها إلى مظان الحق

16

17

والخير والجمال، إلى روابي الخصب والنماء، إلى قمم العدالة والشهامة والمُثل العليا، وكل شاعر فذ عملاق لابد أ، يكون زعيماً في مجتمعه، يصلح فيه ما فسد ويعمر منه ما تخرب ويصوغ ألحان المجد إشادة وذكرى ما بنى عظيم وشاد، وهو يصدر في ذلك عن إحساس صادق وشعور حي بالحياة، وعلى هذه الصورة يكون الشعر فاعلاً في المجتمع ويكون أداة بناء وتعمير"[18].

وعلى هذا الأساس، ومن هذه المنطلقات مجتمعة يرى أنه من الأهمية بمكان اضطلاع الشعراء بدور في التعريف بما كان وما أصبح كائنا، وهنا يوصي صديقه الشاعر الشعبي سالم محمد مفلح (بو راشد) بأن يجعل ما قاله (بو علي) في المقطوعات الشعرية السابقة وهو يصور حالة (بوريه) ودوران عجلة الزمن، موضع اهتمامه وعنايته (تعن)، بأن يحوله إلى خطاب في الحفلات، ويرويه في حلقات الذكر أو المذاكرة المساجدية أو الجوامعية.

على ألا يقف في خطبه عند ما قال (بوعلي) من فن في القول ولكن عليه أن يزيد على الفن فنا وباعتباره (بو راشد) حكّاء مشهود له بالبراعة في السرد الحكائي فإن عليه أن يقص (يشرح) للمتحلقين حوله في مجلسه كل ماعاشه وعاصره من أحداث ووقائع (عبائر) كان قد عبر عنها في اشعاره وما عليه إلا أن ينتقي منها درر أبياتها (خيار البيوت) المنحوتة في الصخر لا تبليها السنون وإن تقادمت، ولنصغ لما يوصينا (بوعلي) أن نقوله ل (بو راشد):

قولوا لبو راشد بقولي تعن[19]

في الحفلة اخطب به وذاكر

في خطبتك زيّد على الفن فن

واشرح لهم كل العبائر[20]

من زين شعرك من خيار البيوت

من الذي في الصخر منحوت

وإذا ما تساءل سائل عن مآل أو مصير ذلك (اللولب) الذي طال أمد فتحه (مفروت) ليمضي في انهمار ما به من مآسي وشرور على هامة (حضرموت) بل و(الأمة) كافة. هنا يستدرك (بو علي) مستطرداً في أخباره لعناية (بوراشد):

18

19

20

واللولب اللي قد مضى لُه زمن

مفروتعالأمة وغاير[21]

بالثوره اتصلح وياصنوغن[22]

انك مقيل أو مسامر

وأهل السلا قَدْهُمْ لصوتك نصوت

من العند لا خلف سيحوت[23]

كانت المسرَّحة السابقة قد تموضعت مأساة الفلاح الشاعر الشعبي (بوريا) وتحولات الثورة، وكانت وجهتها الشاعر الشعبي سالم محمد مفلح (بو راشد)، فيما في مسرحته التي طالعتنا بها (الشرارة) في عددها الصادر في 16 فبراير 1977م وقفْنا عليه وهو يموضع (الثورة) هذه المسرَّحة القصائدية، ولكن من زاوية العتب الأخوي على من يقف بالمنطقة الرمادية فيها لاسيما من أصحاب المصلحة الحقيقية فيها مثل صديقه الشاعر الشعبي سعيد عنبر فرج (العنبري) الذي اتخذه منه (بوعلي) هذه المرة وجهة لمسرَّحته التي سنقتطف منها ماتيسر لنا اقتطافه بعد قليل.

مسرَّحته هذه أخذ فيها (بوعلي) بأسلوب الشاعر الشعبي الكبير المعلم عبدالحق المتوفي عام 1872م في استهلال قصائد بعبارة (بني مغراه) "والمغراه هي الكلاب التي تدرب للصيد وتمارسه، وأبناؤها (بني) هم الصيادون. أما أخواتها فهي القصائد المغنَّاة في المسامرات المسائية بأصوات خشن جلف يغنيها الرجال منفصلين عن النساء.

وأشعار بني مغراه تتناول مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية كالغزل والصيد والسياسة وغير ذلك"[24]

وحسب المؤرخ محمد بن هاشم (توفي 1960م):

"يعتبر هذا النوع من الغناء من بين أقدم الأغاني في حضرموت والغرض الأساسي من قصائد بني مغراه هو إثارة حماس الصيادين ورجال الطرد أو المطاردة وأكثرها قصائد تُقال وتغنى في "الوعل" والافتخار باصطياده"[25]

21

22

23

24

25

ومن شواهد قصائد (بني مغراه) قول المعلم عبد الحق:

بني مغراه حُوِّل ولو خاطرك محنون

ولا تيأس من الرزق لأن الرزق مسهون[26]

وقوله أيضا:

بني مغراه يا مبرك الجمعه ولثنين

لهن تشريف زايد.. لياليهن يسرين

كذلك قول الحبيب حسين بن عبدالله الكاف في غزلية طريفة:

بني مغراه قلبي في العشقه معذَّبْ

وكبدي محرقَّه وسطها نيران تلهب

أما شاعرنا المعاصر (بوعلي) في مسرحته لصديقه (العنبري) فقد تقمص أو تلبسته شخصية واحد من صيادي الوعول وهم يمارسون رياضتهم الشتوية في رأس الجبل بمدينة تريم حيث تنبث في أبيات مسرحته عدة الصيد أو الاصطياد وعتاده ووسائله وأدواته (الزواد، الجواد، الطراد، الاصطياد) وجعل مضمونها مستنهضا شاحذا الهمة صاحبه:

بني مغراه قال (بوعلي) طرَّف زوادك[27]

لرحله شاقه قم ظَهِر فيها اجتهادك

مع الثوار يا (العنبري) اسرج جوادك

وخُض ميدان في ساحتُه احكُم طرادك

على المبدا وبايزين فيه اصطيادك

إذا أنت مقتنع التزم له في جهادك

وقد ربط بامطرف هنا بين الاقتناع بالمبدأ_ أي مبدأ_ والالتزام به كما يهتدى بنوره في خط السير للجهاد والتزام الأديب أو المثقف عند بامطرف هو ذلك "الالتزام النابع من الذات والإيمان بالهدف، الالتزام الذي يتخذ دونما وصاية من أحد"[28].

26

27

ويمضي يسوق دواعي ومحفزات أخرى تغري صديقه (العنبري) لأن يسرج جواده ويلتحق بركب الثوار:

وباتثمر زراعتك إذا توفر سمادك[29]

وكلما كتبت بالصدق يتبارك مدادك

قفز في عكرها لأن ماينفع حيادك[30]

ولا يفتأ يمطره بتساؤلات تبحث عن إجابات:

تحيد لأجل من؟ لأجل ذي سرقوا عضادك؟[31]

تحيد لأجل من طيب نومه في سهادك؟

فهل تطلب بعد الصفا يرجع فسادك؟

وعا زراعتك يا العنبري يهجم جرادك؟

وفي سوق الضلالات باتسعر رشادك؟

ويعلل (بو علي) حرصه على أن يكون لصديقه (العنبري) دوراً ودعوته له لمبارحة المنطقة الرمادية بقوله:

لأنك سيف بتَّار وترهب في غمادك

ويخشاك العدو في الخطب أو في وهادك[32]

إن وصفه للعنبري بالسيف البتار المرهب للأعداء في غمده فما بالنا حين تجريده من الغمد ليس مدحا من قبيل إطلاق القول جزافاً على عواهنه وإنما هو من ضروب اعتراف البامطرف بقدرات الآخرين وكفاءتهم من صميم معايشته لهم واختبار أصالة معدنهم في مواقف مشتركة جمعته بممدوحيه من أصدقائه الشعراء حيث نجده يصف صديقه الشاعر الباحث في التراث الشعبي الشيخ محمد أحمد بن هاوي باوزير (بو سراجين: نحو 1888_ 7/ 12/ 1997م) بالعتبة الأكبر والأهم بين عتبات سلم الدار والمعروفة عند الحضارم ب (المربوعة) وبأنه عن واقع وحقيقة (من صدق) في موقع مجور الدائرة من مجايليه زملاءه الشعراء، كما أن براعته في قول الشعر

28

29

30

31

32

ضاربة بجذورها بعيداً في القِدم، وإلى هذا له من القوة المعنوية ما يمكنه أن يهز) يزوع) جبل (فرتك) في سهولة ويسر إذا ما أقدم على ذلك، كما يقول (بو علي) في مسرَّحته التي منها:

من صدق (بو سراجين) قطب الدائرة

(أبو سعيد) أساس المربوعه[33]

في الشعر من سابق قديم بارع

لأهل (فرتك) بالسهوله يزوعه[34]

إنه ليس بجديد علينا زعم (بوعلي) أن بمقدور (بوسراجين) إذا ما عقد العزم أن يهز (فرتك) في يسر، فقد عرفنا سلطاناً كثيرياً يذهب في المبالغة إلى ما هو أبعد فيدعي أن هامته (رأسه) عصية على كائن من كان أن يهزها ذلك ذلك أن الهامة الكثيرية حسب زعمه لا تهتز رهبة أو خوفاً لاهتزاز الجبال (الشوامخ) وإنما عنده العكس صحيح كما يزعم في هذه المقطوعة:

قال الكثيري بن عمر بن جعفر

لا ناد رأسي يا الشوامخ نودي[35]

الشحر خذناها وخذنا البندر

وعلى المكلا باتحن ارعودي[36]

وشاعر (بوعلي) يسوق لنا أسبابا موضوعية من منظور على الأقل جعلته يضع صديقه (بوسراجين) في المكانة التي جعله فيها:

عادات لهُ في القول الأول روعه[37]

وأسلوب له في معالجة موضوعه

وله معاني لي تسر الخاطر

في قلوب عشاق السلا مطبوعه

33

34

35

36

37

ونعرفه انه لا دعاه الصاحب

في أي واجب وفيات اشروعه

ما يتعذر لا حان وقت النائبه[38]

واذا زغر مايرتبد ينبوعه[39]

إن (بو سراجين) هنا إذا ما أجريت القرعة (الروع) بين الشعراء، مجبول (له عادات) جاء حظه (روعه) ليضع في مقدمة الرتل منهم (الأول).

وحين رام (بو علي) تجلية فرادة وتميز صاحبه عن أقرانه راح يصفه بالشاعر المطبوع (له أسلوب) في معالجته لما يعرضه ويناقشه من موضوعات في قصائده حتى أن سلاسة وعذوبة معاني القصائد تنص بشرى وسرورا في الوجدانات (تسر الخاطر) وتصبح مشورة (مطبوعة) بقلوب عشاق الفرح الإنساني (السلا) الطالع من نسغ القلب وأعمال الوجدان.

وما يتصف به (بو سراجين) من مزايا التفرد في شخصيته فنانا وإنسانًا لايسوقها (بوعلي) من قبيل المدح والاطناب وإنما عن معرفة ودراية وأكد ذلك بقوله (نعرفه). وقد عرف جوّاب نداء الصديق (لا دعاه الصاحب) عند كل مهمة وملكة (في أي واجب) لما جُبل عليه من وفاء الطباع وعدم الاحتماء بحجج وذرائع (يعتذر) عند الحاجة إليه في مهمة أو ملمة (نائبة) .

أما ينبوع شعر (بو سراجين) إذا ما أطلق من عقاله تدفق (زغر) ما يصدر عنه، وهيهات أن يُوقف (يرتبد) أو قل يتفرملإذا ما تدفق (ما يرتبد ينبوعه).

ونحن نصدق هذا وهو صادر عن شاعر ذواقة شعر بقامة وقيمة (بو علي) وشاعريته وإعلائه من شأن الشعراء الحقيقيين واستجلاء وإبانة أوجه التفرد أو الفرادة في شعرهم كما في مسرحته المؤرخة في 26 يوليو 1971م التي قالها لدى إقامته في عدن آنذاك وكان وجهتها صديقه الشاعر البحاثة محمد عبده غانم (تـ 1996م) و عبر له فيها عن جيشان احساساته وما يختلج بو جدانه لدى قراءته أو سماعه شعر (غانم):

أحس في شعرك إلهام يأتيك من غير ترتوب[40]

وخيال مشرق كأنه النور.. عا الكون مسكوب

38

39

40

وذوق ممتاز عالي نلته من الله موهوب

وكلامك أطعم مذاقه كالشهد من قرف[41] مصبوب

قل لي[42]: ده شي فيك وهبي.. أم هو إلى العلم منسوب؟

إلى أن يقول:

يا هزار شمسان.. يا فنان يا أعز محبوب[43]

كم قلت جمله لطيفه فرحت كرب مكروب!

وشرحت كم سر غامض. بطا على الفهم محجوب[44]

في بيت من شعر شاهد حال في شأن مرغوب

حتى عندي شعرك الفذ في غرة الدهر مكتوب!!

يا سلام (شعرك الفذ في غرة الدهر مكتوب) . ألا يعني هذا خلود الشعر والشاعر وعلى نحو يتبدى لنا فيه اتساق وتناغم ما يصدر عن بامطرف شعرا وما دبجه نثرا مؤكدا بأن "ليس في الشعر قديم وحديث، ولكن هناك شعًر حي وشعر ميت، والفطرة السوية والذوق السليم هما اللذان يجدان في بعض الشعر الذي قيل منذ مئات السنين حياة متجددة مشرقة، فيوليانه مكان الصدارة في محراب الفن الخالد، كما أنهما يجدان في بعض الشعر الذي قيل بالأمس القريب برودة الموت وشحوبه فيهيلان عليه التراب في غير رثاء ولا دموع"[45]. وما كان (هزار شمسان) إلا واحدا ممن أدخلهم (بوعلي) محراب الفن الخالد من الشعراء الأفذاذ الطامحين الذين وهبهم الله سرعة الإدراك والبديهة واتقاد الشاعرية فضلا عن صباحة السحنات التي تنبو منها العيون كما يقول عن صديقه الشاعر الشعبي سالم محمد مفلح (بو راشد) في مسرحته التي صدرها من المكلا إلى الديس الشرقية أو (ديس العُلا) حسب تعبيره، في أجواء 1982م عقب إلقاء الأجهزة الأمنية في عدن، القبض على شبكة تخريبية تجسسية هناك:

با وصيِك يا العاني سرَح بالخط بكَّر بالسروح[46]

41

42

43

44

45

46

وأقصد إلى ديس العلالي حلها الفذ الطموح[47]

(بو راشد)المدراك ..نِعمالشخصذيالوجهالصبوح

شاعرمسرحفيالجّههينقّحعلىالشعبينقوح[48]

وأحسب أن صباحة سحنة (بو راشد) ووضوحه وضوح الشمس في مواقفه وتعامله مع كل من عرفه، تجعل من (بو علي) يؤثر تسريح قصائده لصديقه هذا في بواكير الصبح، كما يسعده التصبيح (أم يحييه بتحية الصباح) متمنيا له صباحا مترعا بالمسرات:

صبَحت عا مسرات يا بو راشد ياللي ميازين الوفاء تنصُبها[49]

يا الشاعر المحكوم القوافي ناقد يا محسَّن الأمثال ذي تضرُبها[50]

اليوم انت دليلنا والقايد با وصيك لأنَك في الجهّه مُنصُبها[51]

ثم يفصح عن دواعي تصبيحه على (بو راشد):

من سأل عن (بو علي) قُل له صامد في قلعة الأمجاد مقوى سلبها[52]

في جيم ياءاً دال شيناً عامد حيث العداله ماطرات سحبها

حيث النضال الحُر خيرُه واجد متروس بالخيرات ذي يهكُبها[53]

ما يشط في الغاده اللعوب الناهد بل مقصدُه حسناء القيِّم يُخطُبها[54]

في المقطوعة يتبدى (بو راشد) مقيماً (ناصبا) لموازنة الوفاء، في تعامله مع الآخر بعده الإنساني، شاعراً ناقدا يقول ما يُفهم ويفهم ما يقال، بل وحكاء يدعم ما يحكيه بمختارات منتقاة من محفوظاته التراثية المشوقة كالأمثال الشعبية، وكل هذا يؤهله لأن يتخذ منه مرشداً (دليلاً) ويُوضع في مقدمة الركب (قائداً) لحمل أمانة (بو علي) وأداء رسالته لمن يلزم أن تصل إليه في تلك (الجهة) التي كانت قد سيّدته فأصبح (منصبا) فيها من الوجاهات الروحية المسموعة الكلمة إلى جانب حضوره الاجتماعي ومكانته شاعرا ناقداً حكّاء، جدير بأن يوصيه (بو علي) بإبلاغ من

47

48

49

50

51

52

53

54

يستخبر (يسأل) عنه بأنه على ثباته (صامد) في حلوله وسكناه كما في مواقفه بما كنّاها بـ (قلعة الأمجاد) التي عاد فأفصح عنها وسمّاها باسمها (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) وما كان له أن يحل (يعمد) بها ويمضي على صموده في البقاء والمواقف لولا ما يلمسه ويعيه من حفزات عل ذلك، فهناك قوة من السلُب أو الأسلاب (الأسلحة) البشرية والمادية رادعة لمن يستهدف تقويضها وبالتالي هد أمجادها (يقال: أن القلاع لا تفتح إلا من الداخل)

هناك أيضا محفزات آخر وهو أن حليب غمائمها (سحبها) عدل.

كما أن النضال في مختلف الميادين أوتي ويؤتي خيراً عميماً موفورا (جم) حتى أن البلد أصبح وكأنه مستودع كبير مملوء على الآخر (متروس) بثمار النضال وما يستثمره ويدخره الأخير (يهكبه) من خيرات في المستودع/ البلد ينتفع ويتنعم بها أبناؤه.

والمسكوت عنه في الأبيات السابقة وإن كان مشهود ملموحاً لا يخفى على كل ذيْ بصيرة وبصر، هو الثورة، والثورة كان بامطرف في أكثر من موضع.. وفي أكثر أكثرمن مناسبة.. وفي شعره ونثره سجل شهادته عليها من موقع المؤرخ المنصف الموضوعي، والمواطن الإنسان المعاصر لتحولاتها ومنجزاتها.. ولنتأمل ونمعن التأمل في ما قاله:

"أقولعنقناعةكاملةأنمنأعظممنجزاتالثورةاليمنيةالمجيدة،بلأقولأنهاالمعجزةالتيتحققتعليد دهذهالثورةالعملاقةأنهااجتثتمنحضرموتومنكافةمحافظاتاليمنكلمظاهر الظلمالاجتماعيو أز التعواملالفرقةمنبينناوجعلتناشعبانسعىلتحقيقغاياتنبيلةونشعربأننااسادةفيبلادناونملكم صيرنافلامكانعندناالاستعلاءعلىبعضنابعضا،ولايجرؤأحدلأنأنيدلعلىآخربعنصريتهأوبذ دقيته.

لقد جعلتنا الثورة نقدس التآخي والتآزر والعمل المشترك لصالح الجميع، ونسعى حثيثا لأن تصبح اليمن _ كل اليمن_ يمنا ديمقراطيا موحدا تحدونا رغبة قوية واكيدة في الانسجام والحياة المشتركة الكريمة[55].

فهل بالله عليكم يصدر هكذا قول عن (عدو للثورة)؟، فبهذا هذا التصنيف وضعت شرذمة ثيرانيةنزقة طائشة (بو علي) في خانة (أعداء الثورة)، واقتادته بعد أن نهبت بعض مخطوطات كتبه معتقلا إلى سجن حجر الرهيب ثم إلى سجن المنورة، بالمكلا أواخر ستينيات القرن العشرين ؟

55

وإذا كان بامطرف (عدو للثورة) فمن هم المخلصون الأوفياء لها الأمناء على مبادئها؟

لا بأس، فقد اعتبر الرجل ذلك ماضيًا على ذمة التاريخ، ورماه خلف ظهره، وطالما قلبنا عليكم المواجع كما يقال، فدعونا نهدئها بالوقوف قليلا عند غزلية طريفة من غزليات (بو علي) تأتي في إطار ما أسماه (موشحات المقامة) في مؤلفه (التراث وصناعة الشعر)، ولا أحسبها إلا من تجارب سني بواكير الشباب، ذلك أنه يبدو لنا فيها غرًا لم تعركه التجارب بعد في حومات ومضامير العشق فراح يستأنس شاكيًا حاله لواحد من العشاق المعاميد صرعى العيون النجلاء، صديقه الشاعر سعيد بن سالم زحفان (ت 12 ذو القعدة 1389، 19 يناير 1971) وقال في شكية حاله:

يا سعيد شف صاحبك في ساحة العشقة قتيل

ظبي رامة

قد تحكم واستبد ع مهجتي دمي يسيل

من حسامه

ياهل ودي ناقدوا القمري الهديل

واكسبوا الفضل الجزيل

هركلي حلو المباسم

فاق خضيراتالوشايم

الخراعيب النواعم

ما مثيله في العوالم

قلب به مثل الصوادم

يا دموعي يا السواجم

اهطلن وانزفن دائم

ويا العواذل ساعدوا

أدركوا وتفاقدوا

نال المتيم والغزيل في الطلب

درب طبعه ما انقلب

لو بشطة عين يشفي لي غليل

يرحم العاشق قليل

وقد جاءه النصح من خبير مجرب عركته التجارب وأكثر منه خبرة وتجربة في مضامير الحب والهيام فقال زحفان :

انتصت يا بو علي العشق ما هو بالصميل

والهجامة

يا رفيقي اترك الولعة بذي هو مستحيل

والندامة

والزم المعقول والحكمة وخذ قصد السبيل

منهج العشقة طويل

نعرفك إنسان عالم

بالصرية والمعالم

في بحور أهل الطلاسم

والمقل ذات الصوارم

وإن ترى ريحك مزاحم

ساير امخورك وقاوم

لا يشلك شعف عارم

يا صبابة جاهدوا

غيكم وتراشدوا

صاحبك لو بيسبب لك تعب

جر نفسك بالسهب

واتركه وانت تحصل لك بديل

يرحم العاشق قليل

وكما تغنى بامطرف بالثورة وأشاد بمنجزاتها وعبر عن تطلعات إنسانها، كذلك المشاعر الإنسانية من أعلى السفوح وخضر الروابي، وإلى حدد دور المثقف وبشر بالوحدة وتغنى بها حلمًا، وتحت يدي وأنا أكتب هذا شواهد من شعره تترجم كل هذه المعاني، غير أن عامل الوقت يقف حائلا دون إتمامي للتجوال الممتع في شعر (بو علي)، فأستميحكم عذرا، وما أتيت عليه وسقته من شواهد ليس إلا شاطئًا دالا على عمق وغزارة البحر واكتنازه دررًا ولآلئ بانتظار من يجليها فلنا إليها عودة إن كان لنا في العمر بقية .

ولو لم يكن شاعرا شعبيًا على جدارة واستحقاق بأن يدرس شعره ويبحث فيه، بل لو لم يكن متعدد الإشراقات كما دأبت على تسميته قبل وبعد إغماضته الأخيرة، هل لو لم يكن كذلك أكان لسيد الحرف والعزف الشاعر الموسيقار حسين أبو بكر المحضار (1931- 2000)، أن يقول فيه:

ذايع الصيت كاتب أديب افتقده الأدب لا المآدب

في الثناء والغزل والنسيب صاحب الاختيار المنايب

كم نظم من غر القصايد كفكفي يا عيوني البكاء

ساحر اللفظ جم المواهب بالقلم واليراع المهيب

مبدع القول في كل قالب كأنه النهر يقلب قليب

كل من فوق ساحله وارد كفكفي يا عيوني البكاء

محفوظ سالم ناصر

صنعاء، الجمعة، 27 تشرين الثاني، 2015

1- محمد عبد القادر بامطرف، باحسن الرائد والفنان، دار الهمداني، عدن، 1985.

2- نفسه

3- نفسه

4- نفسه

5- كون لأول مرة في تاريخ حضرموت فرقة للغناء والإنشاد بمدينة الشحر مكونة من مؤسسها وقائدها القاضي باحسن (شاعرا وملحنًا)، الشيخ سلطان بن صالح ين الشيخ علي بن هرهرة (مغنيًا وعازفًا على العود)، الأديب سعيد علي بامعيبد (شاعرا وملحنًا)، صالح علي الحامدي (ملحنًا وعازف كمان)، عبد النعيم خميس (عازفًا على القنبوس)، عبد النعيم فرج الله (عازف ناي)، عبود بامعبد (ضابط إيقاع)، أحمد عمر باقبيسي (مغنيًا)، سعيد بن عقيل (منشدًا)، حسين أحمد الحامدي (شاعرًا) .

كانت بدايته في صياغته الشعر الغنائي عام 1303، وفي عام 1309 قال أشهر قصائده المغناة (ما للرشا المعسول جوز في العشقة عذابي) . ومن أغانيه : لك البشارة، يشوقني برق، سباني مهفهف عشية، رب إني قرعت الباب، نعم طيب الأنفاس، يا من على الصد، قال الذي قد هام، ... وممن غنى من شعره، محمد جمعة خان، سعيد عبد المعين، يسلم دحي، عبد الله حاج بن طرش، عمر محفوظ غابّة، أبو بكر سالم بلفقيه، محفوظ بن بريك، بدوي زبير، كرامة مرسال، أحمد بي أحمد قاسم، محمد سعد عبد الله، فتحية الصغيرة، إبراهيم الماس، وأيوب طارش. انظر عبد الباسط الغرابي، القاضي ابن جمال الليل رائد الشعر الغنائي في حضرموت، شعاع الأمل، العدد 152، ديسمبر 2014، 26

6- بامطرف، باحسن، المصدر السابق .

7- نفسه

8- نفسه

9- نفسه

10- الغرابي، المصدر السابق، 26

11- بامطرف، التراث وصناعة الشعر، مؤسسة الطباعة والنشر، عدن، 1982

12- أحمد هادي باحارثة، محمد عبد القادر بامطرف ناقدا أدبيا، دار الوجيدة للنشر والتوزيع، حضرموت، غيل باوزير، 2014، 41

13- ذي هم: الذين هم .

14- بامطرف الغائب الحاضر، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين م/ح، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن، 1988، 22

15- شتون: طاوونجوعى .

16- انطمخ: في حالة ذهول ولا وعي وإدراك بما يجري حوله، ون: أصدر أنينًا.

17- السيطان: الصحاري الجبلية، مفرده سوط، الخبوت: المكان النائي المقفر والخالي من الحركة، مفردها خبت .

18- باحارثة، المصدر السابق، 36 .

19- تعن: اجعله موضع عنايتك واهتمامك .

20- العبائر: الحكايات ووقائع ومجريات الأحداث . مفردها عبارة .

21- غاير : متعطل . اللي: الذي .

22- اتصلح: تم إصلاحه .

23- العند: من مناطق لحج، سيحوت : من موانئ المهرة .

24- روبرت سارجنت، نثر وشعر من حضرموت، المركز اليمني م/ح، إبريل 1980، 57

25- نفسه

26- حوّل: أن يقال (يا حول يا حولاه) لإعلان البشرى بمقدم السيل أو الاستعداد والتهيؤ لمقدمه إن كان منذرا بخطر محذق، محنون: مكتئب حزين، مسهون: منتظر مؤمل .

27- طرف: جهز، زوادك: ما تتزود به .

28- باحارثة، المصدر السابق، 40

29- باتثمر: ستؤتي ثمارها .

30- عكر: غبار المعركة .

31- العضاد: قطعة دائرية تصنع من الحديد أو الفضة يحيط بها البدوي عضده ذرءًا للحسد، وياخذهازينة .

32- في الخطب: عند ثورتك واستنفار قواك، وهادك: دعتك، سكينتك .

33- أبو سعيد: كنية بو سراجين .

34- يزوعه: يهزه ويرجه .

35- لا ناد: إذا تمايل نتيجة هزة أو رجة، نودي: اهتزي، تمايلي .

36- خذناها: استولينا عليها عنوة.

37- روعة: حظه، نصيبه .

38- النائب: المصيبة .

39- زغر: تدفق، يرتبد: يحجز، يوقف تدفقه.

40- من غير ترتوب: دون أن تتهيأ أو تترتب .

41- قرف: علبة، قصعة يوضع فيها العسل بعد أن يجنى (يدبس) .

42- ذه: هذا .

43- شمسان من جبال عدن .

44- يطا: تأخر، مضى عليه زمن ليس بقصير .

45- باحارثة، المصدر السابق، 45 .

46- با وصيك يا العاني: سأوصيك يا من كلفتك (عنيتك)، وجعلت هذه الوصية موضع عنايتك . سرح: سر، أو اذهب صباحًا، والسروح يعني الخروج صباحًا، وعكسه الرواح أي العودة مساء، الخط: الرسالة .

47- لي: الذي. حلها: سكن بها .

48- شاعر مسرّح: من شعراء التساريح الذين ينظمون قصائد في غرض بعينه ويوجهونها لشعراء آخرين يطلبون فيها منهم رأيًا أو موقفًا من أمر بعينه فيأتي الرد بروي ووزن المسرحة الأولى . الجهة: المنطقة، ينقح: يوقع شعره .

49- يا اللي: يا الذي، تنصبها تقيمها .

50- المحكوم القوافي : المتقن لقوافيك معنى ومبنى، يا محسن : ما أروع . ذي: اللتي .

51- دليلنا : مرشدنا، باوصيك: سأوصيك، سأكلفك .

52- مقوى سلبها: ما أقوى أسلابها (أسلحتها).

53- واجد: كثير، وافر، متروس: ممتلئ إلى آخره، ذي يهكبها: التي يدخرها .

54- ما يشط: لا ينظر، لا يتطلع .

55- من مداخلة للأستاذ بامطرف في ندوة نظمت بالمكلا في ذكرى انتفاضة القصر (1950/12/27) . محفوظات الباحث .